منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1749) السنة السابعة - السبت (20) آذار 2010

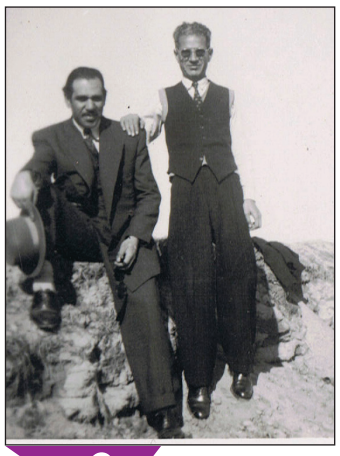

2

محمد شرارة بين متطلبات الالتزام و حرية الضمير

8

شهادة في كتاب بلقيس شرارة محمد شرارة

14

محمد شرارة.. بقلم كريم مروة

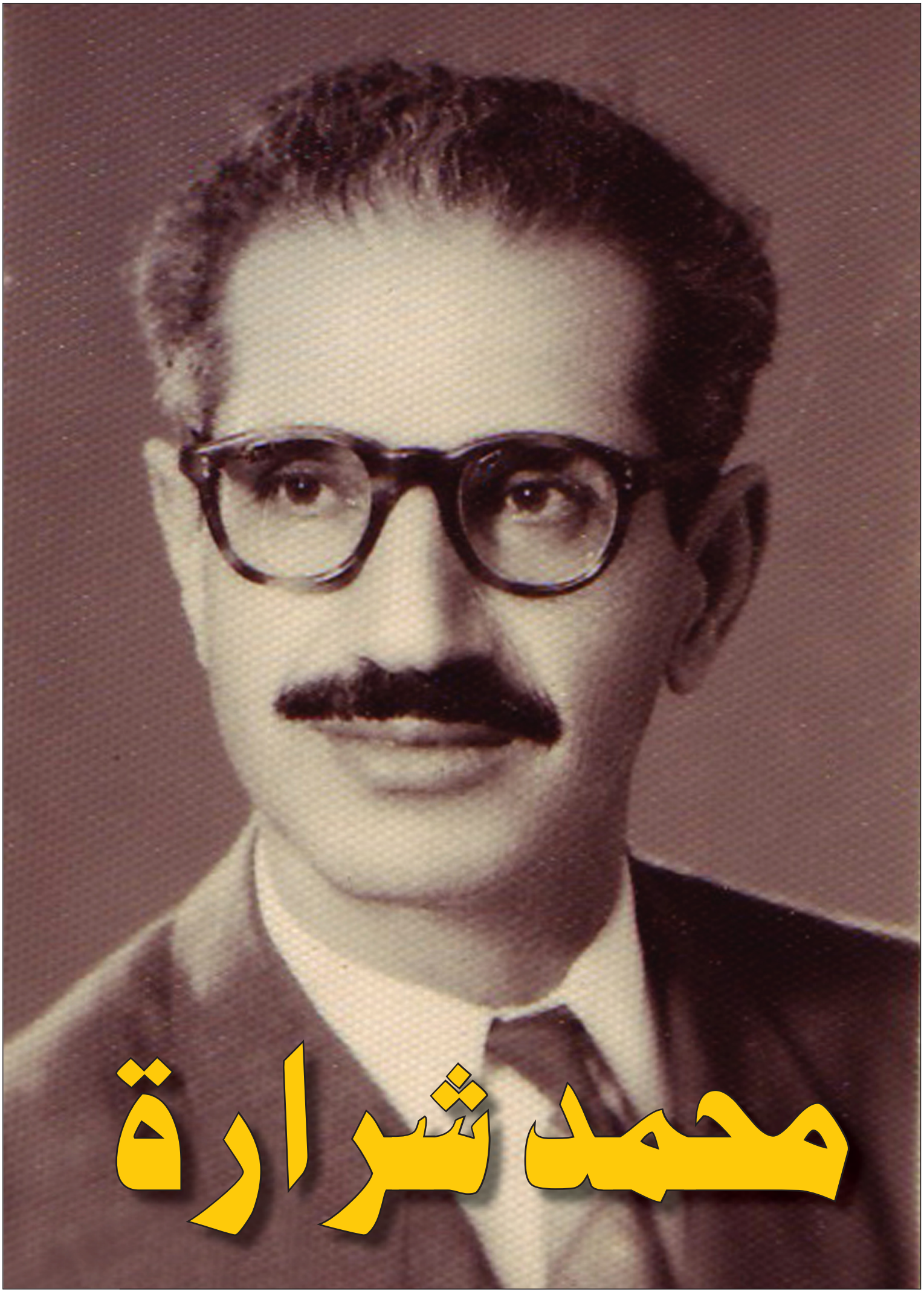

محمد شرارة بين متطلبات الالتزام و حرية الضمير

سافر محمد شرارة من لبنان إلى النجف، تلبية لرغبة والده دراسة المعرفة الدينية، بالتحديد الدين الإسلامي/ الإبراهيمي، و ليحصل على شهادة الاجتهاد، فيتمكن من أن يرتقي بمرور الزمن إلى مقام قاض بين القضاة.

درس نصوص هذا الدين لمدة ستة عشر عاما، أتقن خلالها المعرفة التي كانت معتمدة من قبل المؤسسة الدينية في النجف، حيث حصل على شهادة الاجتهاد. غير انه خلال مرحلة الدراسة اخذ يطلع على الأدب العربي بعامته بما في ذلك أدب الحركة المعرفية العلمانية، التي كانت تتأسس في مصر و لبنان، كما اخذ يطلع على العلوم الغربية. فعّلم نفسه اللغة الانكليزية، و اخذ يطلع على مختلف مجالات المعرفة في التاريخ لمفهوم الإنسانية و التنوير و الفلسفة بعامتها، إضافة إلى ما كان اطلع عليه و هو طالب من المنطق الأرسطي.

رفعة الجادرجي

ساوره في هذه الفترة الشك، الذي كان لا بد أن يظهر لدى رجل بطبيعته السيكولوجية، و مزاجه الوجداني و تفكيره الحر، حيث وجد هناك تناقضا متأصلا بين النصوص الدينية و ما تحمله من معرفة، و مفهوم العلم الذي اخذ يطلع عليه. و وجد أن المعرفة التي يحملها الدين، و التي يعتمدها، تفترض الالتزام برؤية كان فاتها الزمن بعدة قرون قبل أن تظهر. و ذلك بسبب التطور المعرفي الذي حققته الحضارات الكبرى في العلوم و الفلسفة، و منها علوم و فلسفة الحضارة الإغريقية التي اخذ يطلع عليها.

فالدين الإسلامي، كغيره من الأديان الإبراهيمية، يفترض أن العقيدة منزّلة، و لذا يفترض مسبقا الالتزام بنصوص العقيدة، و بما تتضمن من خرافات و معجزات، بقدر ما يفترض الالتزام بطقوس لا عقلانية كانت قد فرضت على المؤمن من قبل أربعة عشر قرنا. بينما العلم الذي أخذ يطلع عليه يفترض ان المعرفة هي من ابتكار فكر الإنسان، و هي في حالة تطور و إضافة و إلغاء و دحض و ابتكار الجديد منها، في سيرورة لا تنتهي. فالمعرفة، لا تنبني إلا على الشك و المساءلة. و هذا ما يتعارض جوهريا مع الالتزام و العقيدة، سواء منه الديني أم السياسي.

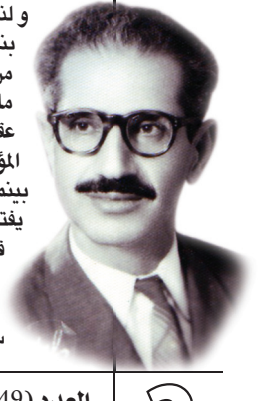

لقد ظهر الإنسان، و المصطلح عليه بالعاقل homo sapiens، قبل مائتي ألف عام، فتطور و ظهر للوجود بفكر يتمتع بثلاثة قدرات: المنطق، و الأنلوغ analogue، و الابتكار، مما جعله يختلف عن جميع الحيوانات الأخرى في انه بامتلاكه لقدرات الابتكار. و الابتكار لا يحصل إلا أن يُسبق بالمساءلة و الشك، فيسخر قدراته الأنلوغية و المنطقية و يبتكر رؤى جديدة في مختلف مجالات الوجود، حسب قدرات مراحل تطور الفكر و التراكم المعرفي التي يبتكرها من جيل لآخر، و من حضارة لأخرى. مما يعني أن نكران الابتكار، و المساءلة و الشك هو نكران إنسانية الإنسان.

و مع كل مرحلة جديدة، تظهر معرفة جديدة، تبتكرها قلة من بين أفراد الجماعة/ المجتمع، فيحصل تناقض بين الرؤية الجديدة و تلك القائمة التي يسخرها المجتمع في تنظيم معيشه اليومي، مما يجعل الرؤية الجديدة تتناقض مع التنظيم القائم، سواء التنظيم الذي يقود تفعيل الدورة الإنتاجية أم تنظيمها، و إدارة العلاقات الاجتماعية الخاصة و العامة. لذا يظهر في المجتمع من يقاوم الرؤية الجديدة، و خاصة منهم الذين يكونون منتفعين من تلك العلاقات و المعرفة القائمة، أو من هؤلاء الذين يحملون فكرا كسولا لا يرغب في استنفاد جهد و تقبل الجديد و استيعاب متطلباته. و هذا ما وجده محمد شرارة في المؤسسة الدينية بعد أن قضى ستة عشر عاما.

وجد في الدراسات الجديدة التي أطلع عليها، أن المجتمع يتعرض إلى مخاض فكري و اجتماعي، بسبب المستجدات، لحين تتمكن الأكثرية من استيعاب متطلبات التعامل مع الجديد، و العيش المريح معها، أو تقبلها بالقدر المناسب، و لحين تتعرض هذه الرؤية الجديدة إلى تعديلات مناسبة لكي تنضج. و ما أن تنضج و تستقر يتقدم فرد أو أقلية، و يقدموا على مرحلة جديدة من الشك و المساءلة فيبتكروا رؤية جديدة أخرى. و هكذا فإن مجتمع الإنسان هو دائما في مخاض التغيير من تقبل و رفض الدورات المتعاقبة. و ما أن يستقر لحقبة ما، حتى يبتدئ في دورة جديدة من الشك و الابتكار. و لقد اطلع محمد شرارة على هذه الرؤية في الأدب الماركسي.

فأصبح بالنسبة له، الدين و العلم مقولتين متناقضتين جذريا، غير قابلتين للتسوية. و اعتبر أن ما حصل عليه من معرفة أثناء الدراسة، بقدر ما كانت معرفية يقينية، خدعة لا أكثر، لم يكتشفها بوضوح إلا بعد أن أكمل الدراسة و حصل على شهادة الاجتهاد و نضج فكره. فأقدم على خلع العمامة، و أصبح الشك و المساءلة بالنسبة إليه هما نهج التقدم المعرفي.

لقد نزع العمامة، ليس لأنه انتقل إلى خانة المعرفة العلمية فحسب، بل لأنه كان مصمما منذ البدء أن يسخر المعرفة في خدمة المجتمع. لقد حمل هذه الرؤية الإنسانية منذ الطفولة، و قد توافق هذا المنحى الأول من صباه، مع الرؤية الدينية التي اخذ يدرسها في النجف. و حينما كان المفهوم العام لهذه الخدمة، هو قيادة المجتمع إلى الخلاص، كما في الرؤية الدينية بعموميتها و التي اطلع عليها في البيئة البيتية و التي تربى عليها منذ طفولته، أصبحت الآن بالنسبة إليه، خدمة المجتمع عن طريق المعرفة العلمية، بدلا من خلاص الإنسان، المؤجل إلى يوم الحساب. فاخذ ينضج هذه المعرفة عن طريق المطالعة في الدراسات الفلسفية التي اخذ يبحث عنها سواء في اللغة العربية أم المترجم منها إلى العربية. إذن كانت النقلة بعد نزع العمامة تسعى إلى خلاص ضمن تقدم معرفي اجتماعي يبنى على مصداقية منطقية.

لم يكن مناخ جنوب لبنان خاليا من الهزات و العنف الذي تمثل في الاستعمار الفرنسي. لكن الناس رغم ذلك اتسمت طقوسهم بنوع من الفرح المتمثل في الزجل و الشعر و طقوس الفرح الخاصة. مقابل ذلك، كان الجو في جنوب العراق المتمثل بالتقية و إظهار الظلم بالاحتفال بعزاء الحسين و اللطم و الاستمتاع بالبكاء و النحيب. فالمعيش الذي صادفه محمد شرارة في المجتمع العراقي يتألف من دورات من سكون رتيب، في مقابل بكاء و عزاء، لا يعرف طقوس الأفراح إلا قليلا. لأنه مجتمع لا يتمتع باستقرار حضاري يدوم في الزمن، من غير غزو و هدم و عنف السلطة المستجدة.

إذن علينا أن نرجع إلى تاريخ العراق، بلاد الرافدين، و هي ارض تتمتع بوفرة المياه، و ارض زراعية خصبة نسبيا، غير أنها

علينا أن نرجع إلى تاريخ العراق، بلاد الرافدين، و هي ارض تتمتع بوفرة المياه، و ارض زراعية خصبة نسبيا، غير أنها محاطة من الشرق و الشمال بجبال تسكنها قبائل محاربة غازية، و من الجنوب قبائل بدوية لا تمتهن حرفة سوى غزو الآخر. و ربما كان المؤرخ هنري فرانكفوت أول من أشار إلى العلاقة الجغرافية التي تميز أو تفرد بها مجتمع وادي الرافدين.

محاطة من الشرق و الشمال بجبال تسكنها قبائل محاربة غازية، و من الجنوب قبائل بدوية لا تمتهن حرفة سوى غزو الآخر . و ربما كان المؤرخ هنري فرانكفوت أول من أشار إلى العلاقة الجغرافية التي تميز أو تفرد بها مجتمع وادي الرافدين. فمنذ أن ظهرت الحضارة هناك، و التي كان نشوؤها من بين أولى الحضارات الزراعية، حيث بنت مدنها و حضارتها، و لا تمر بضعة قرون، حتى تسترخي قوى قادتها، أي قوى قيادة المجتمع، فتتعرض إلى غزو من القبائل الجبلية، أو بحركة مشابهة مصدرها البدو الذي يهجم على جنوب العراق، فتقدم هذه الحشود، و تحطم الحضارة القائمة و تدك مدنها و مؤسساتها. لذا أصبح تاريخ العراق عبارة عن دورات متناوبة من تعمير و هدم خلال تاريخه الطويل.

و لم يحكم المجتمع العراقي نفسه بنفسه منذ أكثر من أربعة و عشرون قرنا، و لم يجد الفرصة الزمنية التي تدوم فتمكنه من تحقيق الاستقرار الكافي زمنيا ليتمكن من تنضيج صيغ الحكم و التوصل لتسويات فئوية مناسبة، و طقوس مسترخية. و حصل هذا بعد أن انهارت الإمبراطورية البابلية، و أصبح العراق تحت حكم الفرس، ثم عرب الجزيرة و بعدهم العثمانيين و أخيرا القوات العسكرية البريطانية في أوائل الحرب العالمية الأولى.

لقد دخلت الجيوش الإمبراطورية البريطانية العراق في بداية الحرب العالمية الأولى، فحررته من السلطة العثمانية، و وجدت مجتمعاً متخلفاً معرفيا، علميا، صناعيا، زراعيا، فنيا و تعليميا. و دار الجدل ضمن الإدارة البريطانية، فيما يتعين إلحاق العراق بإدارة الهند كجزء من الإمبراطورية البريطانية هناك، أم جعله مستعمرة مستقلة؟ و انتهى الأمر إلى دولة مستقلة، لها عضوية في عصبة الأمم.

فأقدمت الإدارة البريطانية على تنظيم الدولة و تأسيس متطلبات المجتمع المدني، بما في ذلك التعليم و الرعاية الصحية و تشجيع الزراعة و الصناعة و تأسيس جهاز امني، و تأسيس مجلس نيابي، فظهرت الصحافة و تشكلت الأحزاب، و بدأ يظهر في العراق كادر يؤلف دولة ناشئة حديثة.

غير انه إصلاح أنبنى أصلا على تناقض تأصل في سياسة الإدارة البريطانية، يهدف إلى التعمير و الاستغلال في آن واحد. فمن جهة سعت و نظمت الإدارة البريطانية بناء الدولة و المجتمع المدني، و غيرها من الإصلاحات، و بقدر ما سيصبح العراق متقدم، هدفه أن يتوافق مع الاقتصاد البريطاني، و يتوافق في الوقت نفسه، مع مصلحة العراق. غير أن هذه الإدارة استقطبت أيضا بعض العسكريين المخضرمين من الموالين لها في إدارة الدولة، لتتمكن من تسخير إمكانيات قدرات المجتمع لتامين مصالحها الاقتصادية و السياسية المحلية و المحورية. لقد بني العراق الحديث منذ البداية على هذا التناقض في المصالح. فمن جهة تم اختيار السلطة من قبل الفئة الموالية للإدارة البريطانية التي استلمت قيادة المجتمع و كانت مدعمة و موالية لها، تلك الفئة التي كان غالبها عسكر عثماني و من ضمن الطائفة السنية، فاعتبر هؤلاء موقعهم في السلطة الجديدة للدولة العراقية، كما لو كان حق مفترض ورثوه من تركيب الدولة العثمانية، و من جهة أخرى، تم تأسيس البرلمان و ظهور الصحافة و الأحزاب. فأخذت هذه المؤسسات تنتقد احتكار السلطة، و عدم تداولها، و كبت حرية الصحافة، و إرهاب السياسيين المعارضين، و منهم خاصة الليبراليين، الذين اخذوا يظهرون في الساحة السياسية و في الصحافة. فاقتنعت هذه المعارضة، بمختلف صيغها، إن تأخر تطور العراق يرجع إلى سوء سياسة الإدارة البريطانية، و تدخلها في مختلف شؤون إدارة العراق. كما أدى وعي أفراد الفئة المتعلمة، و سعيها إلى المطالبة في الاستقلال الكلي. غير إن هذه الفئة أهملت إشكالية تخلف المجتمع العراقي، و هو العنصر الثاني في تركيب المجتمع، خاصة الريفي منه الذي يمثل غالب المجتمع العراقي، و الذي يحمل ذاكرة العوز و الاضطهاد لعشرات القرون. مما أدى إلى ظهور منذ العشرينات، الى ظهور حركات شعبية و قبلية مسلحة، ضد الدولة سواء في الجنوب أم الشمال، فأربكت إمكانية استقرار العراق. و جابهتها الدولة بقمع في مختلف أنحاء القطر.

و هكذا اعتبرت غالب الفئات المتعلمة و المعارضة مع شريحة واسعة من المجتمع، التي أخذت تقرأ نشراتها و صحفها في مقاهي المدن الكبيرة، أن مشكلة العراق تنحصر بنقطتين: أولاهما الاستعمار البريطاني، و ثانيهما جهل الفئة الحاكمة، و إصرارها على احتكار السلطة، و كلا الفرضيتين صحيحة، لكنها لا تؤلف كامل الحقيقة.

في هذا المخاض السياسي، ظهرت تنظيمات سياسية أخرى، منها ليبرالية، منعت من الممارسة العلنية، و تعرضت إلى إرهاب السلطة. فتأسس الحزب الشيوعي العراقي في هذا الظرف السياسي، و جاء بقيادة متعلمة، من الطبقة المتوسطة في المجتمع، تمثلت بـ حسين الرحال و عاصم فليح و ذوالنون أيوب و غيرهم. تعرضت قيادة هذا الحزب منذ يومها الأول إلى إرهاب السلطة. و لم يمض وقت طويل على تأسيسه حتى وجد نفسه عاجزا عن الاستمرار في العمل الشبه سري. و أصبح متعذراً على المتعلم من الطبقة الوسطى الاستمرار في قيادة الحزب. فانتقل الحزب إلى الممارسة السرية التامة، مع قيادة جديدة تتحمل المعيش و الممارسة السرية المضنية. في هذه الأجواء السياسية، جاءت هذه القيادة الجديدة، التي أصبحت تروج العنف مقابل عنف الدولة، فتنكرت إلى دور الأحزاب الأخرى الوطنية، و أصبح كل من يعارضها أو ليس ضمن سيطرتها، هو عميل استعماري، أو برجوازي (بالمفهوم السوفيتي السلبي) خارج النضال الوطني. أدت ممارسة إلغاء الآخر في كثير من الحالات إلى تشتت قوى المعارضة. و وجدت الشيوعية في نظام الاتحاد الحالة المثلى لخلاص البشر، و لذا انجذب إليها الكثير من قادة الفكر في العالم، و من بينهم العراقيين المتعلمين.

في هذه الحقبة التي كان يدرس فيها محمد شرارة في المدارس الثانوية في محافظات العراق، بدأ يفتش عن رؤى أخرى غير الدينية التي وجدها متخلفة و تتناقض مع التطور المعرفي، رؤى و فئة جديدة يشاركها في رؤى الوجود، حيث يتمكن من تسخير قدراته الأدبية و المعرفية لتحقيق أمنيته في خدمة المفاهيم الإنسانية، و يسهم في تقدم المجتمع العراقي. أخذ يقرأ ما كان ينشر عن أعجوبة تكوين مجتمع الاتحاد السوفيتي، لا في نشرات الحزب الشيوعي العراقي فحسب، و إنما في الكثير من كتابات قادة الفكر التقدمي في العالم العربي و الغربي الذين كتبوا، في الأدب و السياسية و علم الاجتماع، المترجم من الأدب الغربي، و ما كتب من قبل الفكر التقدمي في الأدب العربي الحديث، الذي كان يحرره كتاب الحركة التقدمية الداعية للحداثة و التغيير في كل في مصر و لبنان و غيرها من البلدان العربية. فاخذ يطالع في الأدب الماركسي، خاصة أدب القرن التاسع عشر الذي كان رائجا لدى الحركة التقدمية العالمية آنذاك، و وجد فيها رؤى الخلاص التي كان يحلم بها حينما قرر نزع العمامة.

كانت الرؤية العامة بين الشيوعيين و الكثير من التقدميين، أن ما يحصل في الاتحاد السوفيتي، و ما يؤسس هناك، يؤلف قاعدة لخلاص البشرية،

و كان عرض الرؤية الشيوعية في تلك الحقبة، غالبه تبنى على الرؤى الماركسية بصفتها وليدة حركة التنوير، التي تضمنت مقومين أساسين، برؤية واضحة:

١ .تحرير الإنسان من الفكر الغيبي و تأثيراته، و تحرر الشعوب من الاستعمار و من العوز الاقتصادي، الذي عانى منه غالبية المجتمع العراقي و بخاصة مجتمع الريف، و كما كان في العالم عامة.

و بذلك يتحقق تساوي جميع أفراد البشر في الحقوق، لا في الأحوال الشخصية فحسب، بل في الحرية و حق العمل.

٢ – تحقيق نظاما جديداً اقتصادياً سياسياً بحيث يكون هدف عمل الفرد الاستمتاع، بدلا من العمل المضني، و ينتقل الفرد من نوع عمل لآخر حسب مزاجه، كما أن هذه الرؤية، و هذا العالم المثالي سيتحققان على واقع الكرة الأرضية، بدلا من الانتظار الى ما بعد الموت بخلاص موعود.

غير إن الأحزاب الشيوعية تبنت قاعدة ثالثة نادرا ما أشار إليها كارل ماركس، و هي مسألة الانتقال من الرأسمالية إلى المجتمع الشيوعي، حيث يتطلب نوع من الدكتاتورية، أشبه بتلك الرومانية، بناء على تجربة كميون commune باريس ١٨٧١. غير أن لينين جعل منها دكتاتورية البروليتاريا. و عن طريق هذه الدكتاتورية يصبح الحزب الشيوعي الحركة السياسية الوحيدة التي ستحرر العالم من العوز و الاستعمار. مما يجعله التنظيم السياسي الذي سيتمكن من إزالة الفئات الحاكمة الفاسدة في العراق و العالم العربي، لأنه الحزب الذي يحمل رؤية الخلاص السريع من غير مساومة.

انجذب الكثير من المتعلمين و الأحرار من قادة الفكر في العالم العربي إليه. و قرر محمد شرارة أن ينظم إلى الحزب الشيوعي، كما انظم من قبله الكثير من زملائه العراقيين المتحرين، و الذين كانوا ينشدون التغيير إلى عالم أفضل.

و هكذا تأسس اصلا النظام الشيوعي بصيغته السوفيتية، على الدكتاتورية البروليتاريا، التي تتضمن تناقض تأصل فيها، التناقض بين مبدأ حرية إرادة الفرد الذي انبنت عليه ليبرالية التنوير، و من ثم الماركسية، في مقابل دكتاتورية الحزب. لم يقلقه آنذاك هذا التناقض، باعتبار ان الاتحاد السوفيتي كان في طور التأسيس، و كان محاصرا من قبل جميع الأنظمة الرأسمالية، و لم يكن له سبيل إلا في اللجوء إلى مثل ذلك النظام، الذي أسهبت النشرات السوفيتية في إبراز انجازاته، إضافة إلى تنظير فلسفي و سياسي جاء به قادة الحزب من أمثال لينين و غيرهم. و اعتبرت الدكتاتورية مرحلة زمنية قصيرة، هدفها و وظيفتها تنحصر في تأسيس و تثبيت النظام الشيوعي، مقابل الأنظمة الرأسمالية. فلم تكن مسالة الدكتاتورية واضحة و ما يترتب عليها واضحا، لا بالنسبة إليه، و لا بالنسبة إلى غالب الذين انتموا إلى الحزب الشيوعي، كجزء من الحركة التقدمية بين قادة الفكر في الغرب أو البلدان العربية.

بينما ما كان يحصل حقيقة في الاتحاد السوفيتي هو خرق ابسط المبادئ الأساسية لحقوق الانسان، و طمس الفكر المتحرر الحقيقي، في استبدادية كانت تنافس الفاشية آنذاك. و لم يكن كل هذا غائبا عنه فحسب، بل كان غائبا عن الكثير من قادة الفكر المتحرر و التقدمي العالمي.

لذا لم ينخدع محمد شرارة بالرؤية الشيوعية بل اعتقد بها، كما اعتقد بها الكثير من قادة الفكر في أوربا، من بينهم الشعراء كلوركا في اسبانيا، و نيرودا في شيلي و ناظم حكت في تركيا ومن قادة العلماء هولدين في انكلترا، و غيرهم.

أخذ يساهم في النشاط الحزبي، و انحصر دوره في الكتابة. و لكن همش موقعه في الحزب كما همش غيره كثيرون غيره من المتعلمين، و اعتبر كل من اختلف مع القادة في الرأي، يصبح مناضلا مزيفا.

و كل من اعترض من بين زملائه على سياسة قادة الحزب، اتهم بالانتهازية و الرجعية. فتملكته الحيرة، و وجد نفسه بين نارين، فهل يسخر حرية إرادته و يسائل و يعارض، و يتقبل تهمة الانتهازية و يتجاوزها، أم يبقى في هذه الحيرة السيكولوجية، التي يشاهد فيها التناقضات في سياسة الحزب، التي تصل أحيانا إلى أعمال صبيانية، تلغي حرية إرادة الذات، بما في ذلك حق الشك و مساءلة سياسة القادة؟ و هو في الوقت نفسه كان عرضة إلى إرهاب السلطة من خلال كتاباته المناوئة لها.

وجد محمد شرارة نفسه في مثل هذا الظرف، في حيرة من نوع جديد: الالتزام الشيوعي الذي لا يقل صرامة عن الالتزام الديني. فالاعتراض على المؤسسة الدينية، يعتبر نوع من الهرطقة، بينما الاعتراض على سياسة الحزب الشيوعي يؤدي إلى الاتهام بالانتهازية التي تصل أحيانا إلى درجة العمالة.

لقد عانى محمد شرارة كثيراً في حياته، و هو الإنسان الذي فصل من الوظيفة في العهد الملكي، و سجن في العهد القاسمي، و أسقطت عنه الجنسية في العهد البعثي، و عاش بعيداً عن عائلته لعقد و نصف.

عاد إلى بغداد بعد أن أعيدت له الجنسية العراقية، و في يوم من أيام صيف بغداد عام ١٩٧٩، قرر أن يزور سجن أبو غريب. وصل بوابة السجن في صباح ذلك اليوم، و قاده سجّان السجن، كما قادوا الزوار الآخرين، إلى قاعة كبيرة، فشاهد رفعة زوج ابنته بلقيس في الملابس البنية المخصصة لنزلاء السجن، و التفت إلى ابنته بلقيس التي صاحبته إلى السجن، و قال لها: «أهذا المصير الذي كنا نناضل من أجله!».

عاد من سجن أبو غريب إلى دار ابنته حياة شرارة، حزينا، كئيبا، يتأمل عبث الحياة و ما أتت إليه. حياة مليئة بالتضحيات في سبيل المثل التي وضعها نصب عينه منذ بداية تكوينه و تنبعه المعرفي، فتعثرت خطواته فسقط على الأرض، و أصيب بكسر، أدت بعد أيام قليلة إلى جلطة في الدماغ، فارق على أثرها الحياة.

تمثل سيرة محمد شرارة مرحلة في تاريخ العراق، من عشرينيات القرن الماضي لغاية السبعينيات. إنها مسيرة رجل مستقيم متعلم، حر يسعى لإصلاح معيش المجتمع. لم يمارس أي نوع من المساومة في حياته، فتعرض إلى إرهاب السلطة من جهة و إرهاب زملائه من قادة الحزب من جهة أخرى. و لكن بالرغم لما تعرض له من إرهاب و تهميش حزبي، لم يقدم على نقد الحزب، لا خوفا، و إنما حرصا على مسيرة الحركة التقدمية، فالتزم بمبدأ الالتزام.

وهنا مصدر الحيرة السيكولوجية و الوجدانية، التي تعرض لها و وجد نفسه في نفس الدوامة التي وجد فيها غيره من المفكرين الليبراليين.

إنها حيرة رجل يحمل رؤية وجودية مستقيمة حرة، في مجابهة فوضى مجتمع غير مستقر. أبرزتها بلقيس في كتاب "محمد شرارة من الإيمان إلى حرية الفكر" و سعت أن تعرض هذا التناقض بين استقامة الذات و فوضى المجتمع.

٢٠١٠/٣/١٣

ظهرت تنظيمات سياسية أخرى، منها ليبرالية، منعت من الممارسة العلنية، و تعرضت إلى إرهاب السلطة. فتأسس الحزب الشيوعي العراقي في هذا الظرف السياسي، و جاء بقيادة متعلمة، من الطبقة المتوسطة في المجتمع، تمثلت بـ حسين الرحال و عاصم فليح و ذوالنون أيوب و غيرهم. تعرضت قيادة هذا الحزب منذ يومها الأول إلى إرهاب السلطة.

الصفحة الأولى من مذكرات محمد شرارة التي لم تر النور

(١)

في بيت صغير من بيوت الريف العادية المتواضعة ولدت، و ولد بعدي ثلاث بنين و بنت و صبي ، ثم أعقبه بنت أخرى، و بها ينتهي التوالد، و تأخذ الأسرة إطارها النهائي، و تبدأ حركة الحياة في خطها الاعتيادي الذي تحركه الأصابع الخفية،

كان "الجوع" أول إحساس أيقظني، أو أيقظ وجودي و أشعرني أن لي كيانا قائما بذاته، و له حاجاتاه ومطالبه الخاصة و إن اشترك معه فيها جميع الناس. لم أكن أعرف في تلك اللحظة عدد أيامي، و كنت أجهل عمري، و لكني لم أتجاوز دور الطفولة الأولى.

السنة كانت سنة حرب، و كان الشباب كله غائبا عن القرى، و كل شيء يكاد يكون مشلولا في غيابه. فالزراعة تتحرك في أضيق الحدود، و التجارة أشبه الأشياء بالأخبار المضطربة، و ساحة الحرب لا تشبع من المطالبة بالشباب و الموارد الشحيحة و وسائل النقل من الخيل و البغال و الحمير و أشباهها من الوسائل الشائعة.

تحت تينة، و هي الشجرة الثانية بعد الكرمة المغروسة في الدهر، كان الإحساس الذي فتح عيني، لأول مرة، على الحياة، و على ما فيها من غرائب. كنت أبكي، و كانت أمي تنظر نظرات لا أعرف مغزاها، و لا تشير إليه. و لكنها لم تكن تأنيبا أو توبيخا، و ربما كانت عطفا أو حنانا أو حيرة. و لم أعرف ما تم بعد دلك، و لا كيف عولج البكاء، أو عولجت الحاجة إلى الرغيف. و كل ما بقي من الذكرى أن ذلك الإحساس هو الذي أشعرني بالوجود، و انه كان النقطة الأولى في سلسلة النقاط التي تكون الخط الجديد في الرؤية. و لو مر ديكارت بهذا الإحساس، أو التفت إليه في لحظة المرور لانطلق من إلى فلسفته المعروفة، لأنه أسبق من التفكير و من التأمل العقلي في الكون و الحياة.

في الضوء الجديد بدأت أطل على حياة الناس، و حياة الفقراء بصورة خاصة، ففي ذات يوم كنت واقفا على أحد السطوح المشرف على البيوت، و لم تكن أكثر من غرف في دار واحدة، و كان على بوابة الدار الكبيرة مجموعة من الشحّاذين، فانسلت من بينهم فتاة شابة، و دخلت الدار، و وقفت على باب إحدى الغرف و سألت أهلها ما يسأله الشحّاذ عادة. و لما عادت سألها الذين ظلوا ينتظرونها قبل أن تصل إليهم بالعيون، فأخرجت كسرة صغيرة من الخبز لا تتجاوز حجم الدرهم و وضعتها بين إصبعين من أصابعها، و لوحت لهم بها.

كانت الكسرة، على صغرها، شيئاً عظيما، و كان التلويح بها يعني أن "العطاء" ممكن، و أنهم قد يحصلون على كسر مماثلة، و عندئذ دخل الفوج كله، و توزع على غرف الدار الكبيرة، و لم أعرف كيف عاد، و كيف انتهى الطواف بين السائلين و السائلات.

هذا الاسلوب، و هو إرسال احد أفراد المجموعة، كان شائعا فلا يقف السائلون كلهم على الأبواب، بل يرسلون واحدا، فإذا عاد بقليل من الخبز دخل الباقون و الباقيات. و قد عرفت فيما بعد إن ذلك السيل من النساء و الأطفال و كبار السن لم يكن، أو لم يكن أكثره، من الشحاذين. و لذلك لم تكد تنهي الحرب حتى اختفى، و لم يبق منه سوى النوادر.

حديث الحرب و الجوع و الموت كان دائما على جميع الشفاه، و لم يكن للناس حديث غيره، ففي أمسية من الأماسي كان عمي عائدا من بيروت، و كان حديثه عن شاب رأى رجلا يحمل تحت أبطيه من الخبز، فسار الشاب خلفه سيرا خفيا لا يكاد يحس. و لما آنس منه غفلة خطف رغيفا و لاذ بالفرار، و وقعت الأرغفة كلها في المفاجأة على الأرض، و ما لمها الرجل، حتى كان الخاطف بعيدا عنه ، و لكن سار وراءه حتى يسترد الرغيف. و لما أدركه أو كاد شق الشاب رغيفه و أخذ يزدرده قطعة بعد قطعة، فأحد الرجل يضربه على رأسه، و كان تحمل الضرب أهون كثيرا من التنازل عن الرغيف، أو عما تبقى منه. و انتهى الصراع بعدما دخل الرغيف إلى جوف الشاب، و لكن الشتائم بقيت تتعالى من أحد الجانبين و تملأ الفضاء.

ألف المنظر مجموعة من الناس، و من طبيعة المعارك أن تلم العابرين و العابرات، و تنشئ مجموعة من الأسئلة تتنقل من فم إلى فم في محاولة للوصول إلى المعرفة، و كان في المجموعة فتاة في ريعان الصبا، و لكنها على صباها، كانت شاحبة، و كان الضوء في عينيها أقل شحوبا و قد تراءى في بريقه معنى غامض.

وقفت تتفرج على المتفرجين على المعركة، و كانت عيناها تتركز على السارق الذي خطف الرغيف، و على سرعة الضربات و تلاحقها المتتابع على رأسه، و ظهر في ملامحها شيء من التعبير، و لكنه كان تعبيرا ملونا يختلف باختلاف اللحظات. و كان على الشتائم أن تجد لها نهاية بعد ما تنهى أمر الرغيف، و أصبحت إعادته مستحيلة، و هذا الذي كان، فقد استسلم الرجل للواقع بعدما فرغ غضبه، و اكتفى بما ألحقه من ضرب و اهانة.

تفرقت المجموعة، بعد ما تحرك الشاب في أحد الطرق، و كان يتلفت وراءه، لا يكاد يقطع مسافة صغيرة حتى يزداد تلفتا... لقد كان خائفا، و كان يترقب جزاء. أثناء التلفت رأى فتاة وراءه، و أحس أنها تتابع خطاه. لم يخف منها، و لما تأكد أنها تتابعه و تقصده وقف. و عندما اقتربت منه لاحظ أنها كانت من الواقفين الذين كانوا يتفرجون عليه. ماذا تريد، و أي شيء يجول في رأسها، و هل هي لصة مثله، و هل أعجبتها بطولته و صموده في الدفاع عن الرغيف المسروق؟ في أثناء التساؤل المونولوجي وصلت الفتاة و حيت.

كانت تحيتها طمأنينة و أمانا، و رأى فيها نوعا من الإنقاذ بعد الاضطراب و الخوف. و قالت: " أنا جائعة مثلك، و لو كانت لي القوة التي لك لهجمت على الأرغفة و أخذت منها ما استطعت أخذه. لقد كنت متألمة عليك، و كنت أشعر أن الضربة التي تنزل بك تنصب علي".

فازداد طمأنينة و أجابها: جائعة تشكو إلى جائع، و لو بقي بيدي شيء من الرغيف لدفعته لك... و لكن ماذا يصنع جائع لجائعة، و أي شيء يمكن أن يعمله..!.

"أدري أنك لا تستطيع أن تفعل شيئا، و لكن الشركة في الجوع، و الألم مما كنت تعانيه دفعني إليك، و إلى البوح بما أعاني." لست سارقا، و خطرت ببالي السرقة، و لكنه الجوع.. انه أعمى، و في إطار العمى فعلت ما فعلت. "أعرف ذلك، و كل كلمة تقولها أحس معناها، لأن التجربة التي أمر بها لا تقل عن تجربتك إن لم تزد. و قد بلغ بي الجوع ذات مرة أني كنت على استعداد أن أهب نفسي لمن يهبني رغيفا..!" لقد كانت لحظة عاصفة.

كان "الجوع" أول إحساس أيقظني، أو أيقظ وجودي و أشعرني أن لي كيانا قائما بذاته، و له حاجاتاه ومطالبه الخاصة و إن اشترك معه فيها جميع الناس. لم أكن أعرف في تلك اللحظة عدد أيامي، و كنت أجهل عمري، و لكني لم أتجاوز دور الطفولة الأولى

رسالة من محمد شرارة إلى جعفر الخليلي

١٩٣٧/٥/١٧

أخي العزيز

لست أدري ما الذي أخرني عن جوابك إلى هذه الساعة بالرغم من حرصي الشديد في انتهاز الفرص لمكاتبة الأصدقاء، و الحقيقة أني حائر في تعليل هذا التأخير... و إذا أردت أن أقول (الخجل) أو (التمادي في التقصير) أو ما أشبه ذلك رأيته بعيد عن الحقيقة. و كل ما هنالك أن في النفس شيئا غامضا أحسه و أحسن التعبير عنه.. كما أني لا أعرف ما هي الأسباب التي أوقفتني من (الهاتف) العزيز هذا(الموقف الصامت) و الحقيقة هي كما قلتها أنت فلا (المدرسة) و لا (دفاتر الإنشاء) البالغة في الأسبوع ما ينتهز (المئتين) و لا غير ذلك من (الأشغال المتعبة) هي التي أوقفتني هذا الموقف و الذي أستطيع أن أقوله – بالرغم من أني لا أطمئن كل الاطمئنان – أن حياتي الحاضرة و الظروف التي تحيط بي هي التي أوقفتني هدا الموقف الذي لم أكن أتصوره، و لم يكن يخطر ببال، « فأنا أحيا... حياة جافة جامدة لا أثر فيها للعاطفة المشبوبة أو الخيال الجامح أو الروح الملتهبة.. حياة أقل ما يقال عنها أنها (ميكانيكية) بكل ما في لفظ الميكانيك من (معنى جاف).. و لو كان لي مورد ضئيل من الرزق أحفظ به كرامتي و عزة نفسي، و أحفظ به عائلتي من الفاقة لضربت هذه (الوظيفة) ضربة فيها كثير من الحقد و النقمة و الاهانة و السخرية لا لأنها (جنت) عليّ بل لأنها قربتني من أناس أنا أبعّد ما أكون عنهم روحاً و تفكيراً و عاطفة و خيالاً. قربتني من أناس لا يرون العلم إلا بقصاصة ورق... و لا يرون التجدد (بالسترة و البنطلون و الخمرة و الاستهتار بالفضيلة) بل و كل (ما يبتعد بالنفس عن الكمال و الطهارة) قربتني من جو موبؤ لا أفكر إلا بالتخلص منه.. فهذه الحياة الملتوية المضطربة، و هذا الجو المبطن بما يخنق الأنفاس هو الذي أوقفني هذا الموقف على ما أظن... هل تصدقني إذا قلت لك بأنه قد صار ماضيا على أكثر من شهر لم أكتب في خلاله كلمة واحدة لعائلتي و أنت أعلم مني بما يؤدي هذا (الشح) و ما يجره من قلق على نفوس كريمة لا يهمها من الدنيا إلا راحتي و سروري؟؟! فماذا تقول لي؟؟ و ما ذا أقول لك؟؟ و هل استطيع أن أقول لك أكتب لي على كثرة أشغالك لأن كتبك واحة جميلة تطلع في صحراء حياتي.. و هل أستطيع أن أقول لك أني بحاجة إلى كتبك أكثر مما أنت بحاجة إلى كتبي على ما تكابد من شدة و محنة... لأني أعتقد أن ابتسامة واحده تطفو على ثغر فريدة تزيل عنك كل هم و تخلق في نفسك جوا فياضا بالأشعة.

وصلتني القصص و ذهب منها سبع لحد هذا التاريخ و سيذهب الباقي و سلمت لعبد المحسن قصة كما اشتهيت و جاء العدد القصصي بالأمس و الحق أنه عدد رائع لكن قصة الآنسة صفدي نشرت قبل هذا في مجلة (الرواية) لغيرها... سلامات للإخوان و دم لأخيك المخلص.

محمد شرارة

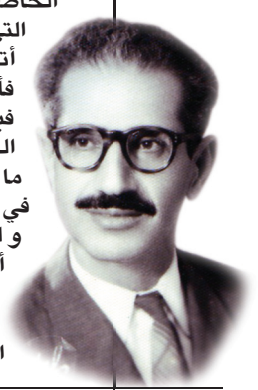

من مقدمة حياة شرارة من كتاب "المتنبي بين البطولة و الاغتراب"

لم يقتصر (محمد شرارة) على جنس واحد من الأجناس الأدبية، و إنما عالج أشتاتا و أنواعا منها. و كان اسلوبه متميزا في مختلف المواضيع التي طرقها، و يشف عن روح شاعرية سواء في مقالاته أو قصصه، أو تراجمه، ناهيك عن قصائده، و يتسم بميسم رومانتيكي و ينم على حس مرهف تجاه الكلمة و وظيفتها الغنية في النص الأدبي

شهدت الثلاثينيات بداية تكوينه الأدبي و تبلوره الفكري، و قد مارس كتابة الشعر و النثر منذ مستهل حياته الأدبية حتى أواخرها مع تطور اسلوبه و تعمق فكره. و كتب المقالة و القصيدة و القصة و عالج الترجمة. و تشف كتاباته في هذه الحقبة عن روح إنسانية صادقة، و توجع لمآسي الناس و توق للمثل العليا و القيم الإنسانية لازمته مدى العمر. وتعبر قصة «غريب» عن هذه الأماني التي تعتمل في ثنايا نفسه: «نشأ و في نفسه ظمأ و لكنه لا يعرف لأي شيء، و في روحه حنين و لكنه لا يعرف لمن، و كل ما يعرف عن نفسه أنها ضامئة، و أنها تتطلع إلى شيء خفي... شيء عذب... شيء مقدس... يحس بعذوبته و يحس بجماله و لكنه لا يراه و لا يلمسه في الحياة»١٤، بيد أن تطلعه لكل ما هو سام و إنساني كانت تصفعه القسوة و الإكراه و الظلم الذي يموج به المجتمع و لذلك شعر بالبعد عما يحيطه و النفور منه. و يشير إلى عدم الانسجام مع الحياة القائمة قائلا: «ذلك لأننا نتطلب شيئاً آخر... نتطلب ما هو أسمى منها. نتطلب ما يعبر عنه «بالمثل العليا» و هذه المثل بعيدة عنا و لذلك تظل «الروح غريبة في هذا العالم»١٥. أفضى به التطلع نحو القيم السامية إلى البحث المتواصل الذي لا يكل عن نظرية أو مبدأ أو عقيدة بمستطاعها نشر العدل و الوئام بين الناس و لم يعتقد بتأصل الشر و الجور في عالم الإنسانية و لم يعتبره جزءا ملازما لها. و سلك دروبا عدة لبلوغ غايته، فبعد ان كان شيخا معمما و بعد ان تضلع بالعلوم الدينية انتقل إلى السلك المدني و أصبح مدرسا للغة العربية و انفتحت أمامه آفاقا جديدة رحبة للتقصي و الاستكشاف و العمل. و الجدير بالذكر ان روح الشباب المتوثبة و نظرته المتحمسة المندفعة صاحبته طوال حياته، و كأن أعوام التجارب المضنية لم تمس شغاف قلبه و لم توهن عزيمته و لم تحجب النظرة المتفائلة من أفق وجوده. و هنا يحضرني قول بيلينسكي و هو يغبط أولئك الذين يستطيعون الاحتفاظ بتلك الجذوة المتوقدة دائماً في أرواحهم: «يوهب الإنسان مرة واحدة في حياته، و في الشباب يمتلك قابلية أكثر من أي فترة أخرى من العمر على فهم كل ما هو رائع و سام. طوبى لمن يستطيع الاحتفاظ بالشباب حتى كهولته و لا يسمح لروحه أن يعتريها البرودة و القسوة و التحجر»١٦. كان لهذه الخاصية أثر في مواصلة سيرورته الأدبية و نشاطه الفكري رغم الظروف القاسية التي مرّ بها. فلم يتوقف عمله الأدبي عند منتصف الطريق و لم ينغلق ضمن إطار محدود، و لم يصب أسلوبه بالتكرار سواء في مواضيعه أو لغته أو مضامينه. لقد كفّ الكثيرون عن مواصلة مسيرتهم الأدبية عندما اصطدموا بأمواج الحياة العاتية أو ظلوا يجترون أنفسهم دون ان يتمكنوا من الإبداع و التجديد و تطوير موهبتهم و قدرتهم الفنية، و هذه ظاهرة واضحة في الحياة الفكرية و الأدبية سواء في العراق أو غيره من البلدان، بينما محمد شرارة شحذ ملكته و رفدها من تيار الحياة المتدفق، و لذلك جاءت كتاباته في أعوامه الأخيرة من أنضج ما خط قلمه في النقد الأدبي.

لم يقتصر (محمد شرارة) على جنس واحد من الأجناس الأدبية، و إنما عالج أشتاتا و أنواعا منها. و كان اسلوبه متميزاً في مختلف المواضيع التي طرقها، و يشف عن روح شاعرية سواء في مقالاته أو قصصه، أو تراجمه، ناهيك عن قصائده، و يتسم بميسم رومانتيكي و ينم على حس مرهف تجاه الكلمة و وظيفتها الغنية في النص الأدبي. ان العبارة المألوفة و الجمل الاعتيادية التي اجترتها الأقلام بعيدة عن يراعه و غريبة عليه. فأسلوبه النثري ينأى عن العبارات التقريرية الصحفية التي تصوغ الفكرة بشكل مكرر و خال من الروح الفنية. فهو يحلق بالكلمة في دنيا الإبداع فتتفتح قوتها الداخلية و تكتسي بظلال شعرية و تتكشف نضارتها و ليونتها. و بذلك تنتعش الكلمة مفعمة بعبق الشعر و عذوبته، باعثة في النفس الجمال و الدفء و الدهشة.

يتجلى هذا الأسلوب الشعري الذي هو أقرب إلى النثر الفني الإبداعي منه إلى النثر المألوف حتى في مجالات الكتابة التي تطغى عليها النبرة الخطابية و الجفاف اللغوي و الكلمات الرنانة كما هو الحال في الحفلات الرسمية أو التكريمية التي تسودها عادة الروح الخطابية الحافلة بالعبارات الحماسية الرامية إلى التأثير في نفوس الحاضرين. و لنستمع إلى كلمة ألقاها في حفل أقيم تكريما لوفد علماء الدين كي نتعرف على خصائص أسلوبه في مجال يصعب فيه الابتعاد عن النزعة التقريرية. يشير إلى دور العلماء في إنهاض الأمة و بعث روح اليقظة فيها قائلا: «و إذا الظلام ينجلي رويداً رويداً و إذا بشفق الصبح يلوح كما تلوح الدمعة في عين العاشق و إذا بالأنوار تذوب ألوانا تسيل من أقلامكم شعاعا صافيا و إذا بالأمة بعد ذلك تمسح عيونها و تنفض ما عليها من غبار الدهور ثم سارت وراءكم طروبة مرتاحة تنظر في كل وقت ما تلقونه عليها من كلمات خالدة في العلم و الدين و اللغة و الأخلاق و السياسة أحيانا»١٧. ألقى هذا الخطاب عندما كان ما يزال في مستهل مسيرته الأدبية، و مع ذلك امتازت لغته بالشاعرية و السلاسة و الليونة، و مواكبة روح التجديد في مضامين المواضيع التي تناولها.

و كتبت حياة عن شعره:

يشف تحليله للشعر عن حس شعري مرهف في فهم و تقييم معمار القصيدة و بنائها و كشف المواضع الرخوة فيها كالكلمات القلقة أو الزائدة و الصور المضطربة، و يبين الجانب المضاد أيضاً. أعني الكلمة المنعشة و الصورة المشحونة بالإيحاء. فهو يقوم بتحليل القصيدة و إعادة تركيبها مشيرا إلى التناسق و الانسجام الذي يربط بين أبياتها و الوهن و النفور الذي قد تنطوي عليه و مواضع الإثارة و التحريك فيها. و يقول عن الشعر في «طيور و شعراء»: « إن الشعر، و إن لم يكن خاضعا للصراحة العلمية، يطلب الانسجام في الألوان كما يطلب دقة التصوير. فإذا فقد الانسجام أو الوحدة دخله الخلل»٢٣. تشكل المحافظة على الوحدة العضوية المتماسكة، في بناء القصيدة و انتظام حلقاتها دون أن يصيب الاهتزاز أو الرخاوة إحداها ضرورة فنية لا غنى عنها. و هناك دراسات كثيرة له في هذا المضمار كتب قسما منها تحت عنوان «الكلمة و البناء الشعري» و سنتوقف عند بعضها. في مقالة «الشرقي و الإيماءة اللاذعة» يلتقط بعض الكلمات ذات المعنى القلق أو بالأحرى، ذات الدلالة التي لا تتلاءم و الصورة الشعرية:

في رمال التاريخ آثار أقدام
لقوم تجاوزا التاريخا

فالتجاوز يعني السبق بينما المعنى المقصود هنا «ورثنا» و لذلك كانت الصورة مختلفة عن المضمون، و هو يؤدي إلى الاضطراب في الجانب الفني»٢٤. يقارن في مقالة «المساء بين شاعرين» تصوير المساء في شعر أبي ماضي و الرصافي و يلتقط موضع الخلل في استعمال أبي ماضي لكلمات لا تنسجم مع الجو العام للقصيدة أو صورة البطلة في الأبيات التالية:

لكنما عيناك باهتتان
في الأفق البعيد
سلمى بماذا تفكرين
سلمى بماذا تحلمين

إن استخدام «لكن» حرف الاستدراك لا وظيفة له، و يفضي إلى خلق خطوط متنافرة بين الإطار العام لجو سلمى النفسي و الجو الخريفي في الطبيعة: « إن الانسجام تاما فما معنى الفتاة في الصورة كامل، و ليس فيه ذرة واحدة من الخلل، و ما دام الانسجام تاما فما معنى الاستدراك!» ٢٥. و يشير أيضاً إلى انسجام التفكير و التأمل مع المناخ المأساوي، بينما الأحلام تتناقض معه و ليس لها من مكان هنا، فالصلة أو الرابطة بين التفكير و الأحلام مفقودة تقريبا و ينطلق كلاهما من حالات نفسية متباينة.

إن تذوقه للكلمة الشعرية و الصورة الفنية ينم عن فهم دقيق و رهافة حس بالغة في تقييم الشعر. و لا غرو في ذلك، فهو يرنو إليه من منظور شاعر، نظم الشعر و عانى من «عذاب الحروف لكي تولدا» كما يقول القباني، و أدرك ما تنطوي عليه وظيفة كل كلمة في السياق العام للبيت الواحد أو القصيدة برمتها و ما تحمله من إيحاءات و دلالات قد تكون جديدة لم يتطرق إليها أحد في السابق. ففي تعليقه على رضوان الشهال: «المرأة في جرار الصيف» يلتقط المعنى المبتكر لتمسك الشاعر بظل حبيبته فقط، في البيت التالي:

غدا عن ذهبت، خذي كل شيء
سوى الظل، خلّيه يا أخت لي

و يقول في هذا الصدد «... و إبقاء (الظل) فقط شيء فريد في الحب، شيء كبير جدا في تاريخ الحياة و الحب و الأمل...».

و كما يلوح الإبداع في الشعر في بناء الكلمة أو الصورة الشعرية أو الرمز المشحون بمعان متنوعة، فإنه يتضح أيضاً في النظرة الإنسانية السامية للحياة التي تحلق بالإنسان إلى عالم المدينة الفاضلة التي تاق إليها و تخيلها و تمثلت في سلوك أنفار قلائل من أبناء الأرض و أفكارهم. إن رثاء متمم بن نويرة لأخيه مالك يختلف عن شعر الرثاء الحافل بالدلالات العاطفية، ففيه يتجلى السمو الإنساني و يرى في مأساة أخيه مأساة الإنسانية كلها حينما يقول ردا على لوم رفيقه له على ذرفه الدمع مدرارا:

فقلت له: إن الشجا يبعث الشجا
فدعني فهذا كله قبر مالك!

و يقول عن الشطر الأخير: «أي وثبة هائلة في هذه الكلمات» و يذكر هذا البيت أكثر من مرة في كتاباته لأن الشاعر أصبح «طائرا يحمل في كل ريشة من ريشه ساقية من الدم الجاري عبر العالم».

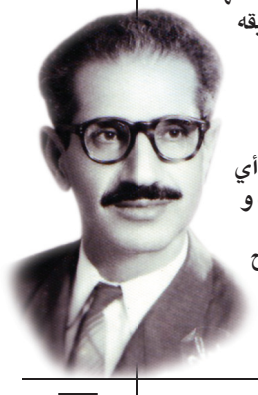

كان "جدار بين ظلمتين" أول كتاب قرأته للسيدة بلقيس شرارة. هذا الكتاب القيم الذي أنجز مناصفة بينها وبين زوجها المعماري الكبير والفنان المبدع رفعة الجادرجي، إضافة إلى ما قرأته لها من مقالات قبل ذلك وبعده، كما كنت متابعاً لنشاطها السياسي في بغداد في الخمسينات من القرن العشرين. وبسبب إعجابي بالكتاب الأول، نشرت مقالاً حاولت فيه تبيان أهمية كتاب "جدار بين ظُلمتين" من الناحيتين المعرفية والتاريخية وما تضمنه من تسجيل لوقائع حقيقية ومعاناة إنسانية يومية مشتركة وإن اختلف المكان. فأحدهما في سجن صغير ولكن الثاني في سجن كبير يحتضن السجن الصغير من جهة، ومدى التناغم والتفاعل في ملامسة الحس الإنساني العميق بين زوجين حبيبين في تجلياته الواقعية الرائعة وفي ظروف الفرج والشدة، العسر واليسر، العتمة والضياء من جهة ثانية. وكذلك الأسلوب الجديد الذي تم اختياره لإنجاز الكتاب مناصفة وبتعاقب في الفصول من جهة ثالثة. إنه التجسيد لمعاناة زوجين فصل بينهما نظام ظالم متوحش لا يعرف السجين مصيره فلا يعرف أحياناً كثيرة لِمَ اعتقل أصلاً!

عراق محمد شرارة كما روته بلقيس شرارة

بقلم كاظم حبيب

من هنا كنت متشوقاً لقراءة كتابها الجديد الذي يبحث في الشخصية الأدبية الرومنسية المتميزة والسياسية الوطنية المناضلة الأستاذ محمد شرارة (١٩٠٦-١٩٧٩)، عن الرجل الذي حمل في ثناياه روحاً إنسانية أخّاذة تأسر من يلتقي به بأسلوبه الهادئ والرصين في الحديث والمحاجة، إذ كنت أحد قراء مقالاته التي كانت تنشر في خمسينات القرن الماضي، كما اطلعت على كثرة من مقالاته التي نشرت في مجلات عراقية كانت تصدر في ثلاثينات القرن الماضي والمتوافر بعض مجلداتها لدى الصديق الأستاذ عباس سميسم في غوتبورغ السويد.

تعرفت على الأستاذ محمد شرارة في آب من العام ١٩٧٨ وفي فترة حرجة من تاريخ العراق السياسي، التقيت به في دار الصديق الدكتور محمد صالح سميسم حين دعاني وزوجته حياة شرارة لزيارتهم.

جرى الحديث بيننا حول الوضع السياسي في العراق واستمعت إلى الأستاذ شرارة بأذن صاغية وهو يحلل الوضع السياسي حينذاك ويشير إلى التردي المتسارع في سياسات السلطة وحزب البعث والعواقب الوخيمة المحتملة على الشعب العراقي برمته. وكان محمد شرارة قد رأى العاقبة التي سينتهي إليها نظام البعث مبكراً بحس وطني مرهف وموضوعية عالية، ولكنه أدرك أيضاً أن نهاية البعث ستقترن بالمزيد من الويلات للشعب العراقي، رغم أنه كان لا يريد أن يفقد الأمل بقدرة الشعب على الخلاص من تلك الطغمة الفاسدة والظالمة والمتجبرة. وكانت في نبرة حديثه عتاب ودود لعواقب ذلك التحالف البائس بين الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث العربي الاشتراكي، وكأني به يقول: "الم تكن أحداث وجرائم شباط ١٩٦٣ و١٩٧٠/١٩٧١ كافية ؟! وكانت المحنة التي ألمت بالشعب كله والتي لا تزال قائمة بصيغة أخرى!

سمات الكتاب

قرأت كتاب السيدة بلقيس شرارة بعناية كبيرة. فهو كتاب قيّم بتميز وجهد مشكور لشحذ ذاكرة من عايش محمد شرارة وتعرف عليه أو من قرأ له، كما إن الكتاب يهدف إلى جلب انتباه الشبيبة المثقفة إلى واحد من أبرز مناضلي العراق في مجال الأدب والشعر والمقالة والقضايا الاجتماعية والسياسية، ومن أجل أن لا يطويه النسيان، كما أشارت الكاتبة في المقدمة. وكم أتمنى أن ينتبه إلى ذلك أساتذة كلية الآداب وكلية العلوم السياسية لدراسة جوانب مختلفة من حياة وأعمال هذا الرجل اللبناني المولد والعراقي التكوين.

يتميز الكتاب بعدد من النقاط المهمة التي تستوجب الإشارة إليها سلفاً، ومنها:

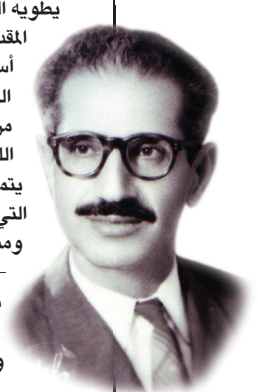

-١ يتضمن الكتاب دراسة تحليلية نقدية معمقة ومتعددة الوجه لشخصية وحياة وأدب وشعر ومجمل تراث محمد شرارة بشكل مكثف غير مخل لفترة تزيد عن نصف قرن. فهو عبارة عن مسح تحليلي نقدي وليس مروراً عابراً لمحطات أساسية في حياة الشخصية اللبنانية/العراقية وكتاباته وشعره ونشاطه السياسي والاجتماعي وعلاقاته الخاصة والعامة بدءاً من مغادرته لبنان، وهو ابن الرابعة عشر ودخوله المدرسة الدينية في النجف، التي ساهمت في تكوينه، ولكنه تحرر منها لينهل من ينابيع الفكر المتحرر ويتمتع بحرية الفكر المستقل بعد معارك فكرية واجتماعية غير قليلة في أجواء المدارس الدينية النجفية حينذاك.

-٢ ويمنحنا الكتاب فرصة التعرف على أهم وأبرز المواقف الأدبية والثقافية العامة والاجتماعية والسياسية التي تبناها ومارسها محمد شرارة دون أن تمنعه عن ذلك تلك العواقب السلبية المحتملة التي يمكن أن تلحق به وبعائلته والتي حصلت فعلاً.

-٣ كما يتضمن الكتاب رؤية نقدية مباشرة وغير مباشرة مارستها الكاتبة بلقيس شرارة في البعض الأهم من تلك الأحداث والاتجاهات الفكرية والفنية والأدبية والسياسية التي كانت مشاركة فيها أو شاهدة عليها أو تحاورت بشأنها أو اتخذت موقفاً منها.

-٤ ويتعرض الكتاب بحيوية وانفتاح لجوهر المعارك الفكرية والدينية والاجتماعية ومن ثم السياسية التي خاضها محمد شرارة ابتداءً من عملية التنوير والإصلاح الديني انطلاقاً من النجف حيث تعلم في مدارسها الدينية ومروراً بحقوق المرأة وحريتها ومساواتها بالرجل، وانتهاءً بالموقف من الاستعمار والهيمنة ومصادرة الحريات الديموقراطية وتشويه الدستور. وتشخيص الكاتبة كان سليماً حين أكدت بأن نضال محمد شرارة لم يكن بالقلم فحسب، بل بممارسة النضال الفعلي ودخول السجن والتعرض للفصل والطرد من الوظيفة والعيش مع عائلته في حالة الكفاف من أجل ذلك.

-٥ ويتعرف القارئ من خلال الكتاب على التحول الفكري الذي صاحب تكوين شيخ الدين محمد شرارة في النصف الثاني من الثلاثينيات، والذي كان والده قد خطط له أن يدير جامعاً ومدرسة دينية في إحدى بلدات لبنان، وتبني الماركسية، أو المنهج المادي الديالكتيكي، في أوائل الأربعينيات من القرن العشرين، أي كان الرجل قد حدد النهج الذي التزم به وهو في سن النضوج الفكري والسياسي وتراكم الخبرة والمعرفة. وقد حافظ على ذلك حتى غيابه الأبدي عنا، رغم كل الضربات الموجعة التي تلقاها الماركسيون بسبب السياسات غير العقلانية والنهج الفكري والسياسي الخاطئين في فهم وقراءة الماركسية في الاتحاد السوفياتي وبقية الدول الاشتراكية، والتي ساهمت في وقوع الانهيارات في دول المعسكر الاشتراكي في نهاية العقد التاسع وبداية العقد الأخير من القرن العشرين.

-٦ ومن خلال الكتاب يتعرف القارئ، وكذا القارئة، على آراء ومواقف وعلاقات مجموعة كبيرة من الشخصيات الأدبية والثقافية والفنية والاجتماعية والسياسية التي عاشت خلال الفترة الواقعة بين سنوات العقدين الرابع والثامن من القرن العشرين من خلال تشخيصات محمد شرارة ذاته أو من خلال شخصيات معروفة حينذاك أو كتابات لشخصيات عراقية وعربية عاشت وتفاعلت مع أحداث تلك الفترة وشخصياتها، وكذلك من خلال الدراسة المتأنية والدؤوبة والدقيقة التي نهضت بها السيدة بلقيس والتي تتجلى في متن الكتاب.

-٧ والكتاب يقدم بلغة رشيقة وشفافة لوحة أدبية وعلمية نموذجية من حيث المنهج في كتابة السيرة يمكن أن يُحتذى، إذ أن الكاتبة لا تقدم لنا مادة جامدة يجري الحديث فيها عن الشخص فقط دون أن تترك الأبواب مشرعة على العصر الذي عاش فيه وطبيعة علاقات الإنتاج وقواه والأفكار التي انتعشت وتصارعت حينذاك والتي تجلت في البنى الفوقية التي ميزت الدولة العراقية ووسمت التشويهات الكثيرة في تطبيق الدستور الملكي والمؤسسات الدستورية الشكلية، وحياة الميسورين والأغنياء وكبار ملاك الأراضي الزراعية وكبار التجار، من جهة، وحياة الفقر والفاقة والعوز للغالبية العظمى من الشعب العراقي، وكذلك مجمل الحياة الاجتماعية في العراق من جهة أخرى، إضافة إلى حياة البؤس والفاقة للمعلمين وحملة الشهادات والمثقفين بشكل ملموس ومن خلال التعرف على الوضع المعيشي والضنك المالي والتنقلات الكثيرة سعياً وراء العيش الكريم.

-٨ والكتاب ينقل إلينا صورة صادقة عن حياة سكان المدن والريف العراقي وعن المشكلات التي كانت تواجه الشعب العراقي بقومياته العديدة وأديانه ومذاهبه الكثيرة، عن معاناة الكُرد وعواقب تلك المعاناة في الممارسة اليومية الشعبية للكُرد في الموقف من العرب واللغة العربية، وكذلك عن المدرسة والتعليم ومصاعب المعلم وما كانت تعانيه العائلات من جراء تلك الأوضاع حينذاك.

-٩ كما يستعرض الكتاب محللاً أوجه الحياة الثقافية والفنية، وخاصة في أعقاب الحرب العالمية الثانية حتى سقوط الملكية ودور المثقفين ومدارسهم المختلفة في الرسم والشعر والأدب عموماً. وتتحدث عن أبرز الرسامين والكتاب والشعراء، ومنهم جواد سليم ومحمود صبري وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة.

وإذ ينتقل الكتاب من المرحلة الملكية إلى المرحلة الجمهورية يشير إلى الخيبة التي أصيب بها المثقفون والسياسيون الديمقراطيون بعد سقوط الملكية الدستورية التي شوهت الدستور في الممارسة العملية، وبين الجمهورية التي أسقطت ذلك الدستور وتشويهاته، ولكنها عجزت عن إقامة دولة دستورية ومجتمع مدني وممارسة سياسات مدنية عقلانية. حافظ الثوار العسكر على السلطة بأيديهم حتى تجرعوا وجرعوا غيرهم الموت على أيدي الانقلابيين الأوباش. ولكن الكتاب يقدم تحليلاً ذكياً وواضحاً عن مضامين وممارسات النظام السياسي الذي ساد في الفترة الملكية والتي كانت السبب وراء نشوء الرغبة العارمة في الخلاص من سياسات النظام الملكي ومن حكوماته المتعاقبة التي مارست الاضطهاد والظلم ضد قوى المعارضة السياسية حيث كانت ثورة تموز ١٩٥٨ السبيل للخلاص من الملكية برمتها. أي أن الكتاب ينطوي على رؤية واقعية للعلاقة بين المجتمع والسلطة، بين أجهزة الدولة، وخاصة الأمنية والشرطة، والشعب وقوى المعارضة السياسية التي كانت تعاني الأمرّين وحياة السجون وعذاباته وآلام وحرمان عائلات السجناء.

كاتب عراقي

الكتاب يقدم تحليلاً ذكياً وواضحاً عن مضامين وممارسات النظام السياسي الذي ساد في الفترة الملكية والتي كانت السبب وراء نشوء الرغبة العارمة في الخلاص من سياسات النظام الملكي ومن حكوماته المتعاقبة التي مارست الاضطهاد والظلم ضد قوى المعارضة السياسية حيث كانت ثورة تموز ١٩٥٨ السبيل للخلاص من الملكية برمتها

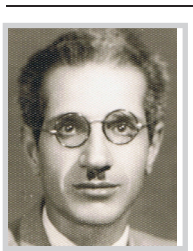

محمد شرارة.. من الإيمان إلى حرية الفكر" لبلقيس شرارة

الـــرجـــل الـــغـــنّـــي الـــعـــقـــل والـــــروح لا يُـــســـتـــنـــفـــد غـــنـــاه

في كتابها الصادر عن "دار المدى" بعنوان "محمد شرارة، من الإيمان إلى حرية الفكر"، تقدم بلقيس شرارة سيرة سياسية – فكرية - نضالية عن والدها اللبناني العراقي محمد شرارة. على رغم إن الكتاب مخصص في الأصل لتظهير مراحل في حياة والدها وطبيعة فكره وأدبه، إلا إن الكتاب يحمل صورة مزدوجة عن حياة محمد شرارة في سياق التطورات السياسية التي كانت تعصف بالعراق منذ العهد الملكي قبل ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ ثم استيلاء البعث على السلطة في عام ١٩٦٣ وصولا إلى فترة سيطرة صدام حسين على السلطة عام ١٩٧٩ وما بعدها.

خالد غزال

صحيح إن الكتاب سيرة ذاتية، إلا انه تحول بالفعل مرجعاً يمكن من خلاله قراءة التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية التي عصفت بالعراق على امتداد نصف قرن. وعلى رغم ما تتسم به السير الذاتية من محاباة وضعف الموضوعية أحيانا، وخصوصا ما يرد على لسان الكاتب نفسه، أو بقلم اقرب انسبائه، إلا إن بلقيس شرارة استطاعت أن تقدم صورة عن والدها تتسم بالموضوعية والشفافية، من دون أن تسقط في الذاتية الهادفة إلى تلميع صورة والدها.

محمد شرارة هو ابن جبل عامل الجنوبي اللبناني، ولد مطلع القرن الماضي وترعرع في مناخ اتسم بهيمنة الأدب في بيت أدبي، حيث كان ملزما منذ الصغر إتقان اللغة العربية وحفظ الشعر العربي. وعلى غرار تقليد كان سائدا يقضي بإرسال المتفوقين من أبناء الجبل إلى العراق من اجل الدراسة في النجف تمهيدا للبس العمامة والعودة إلى البلد كرجل دين وعلم، أرسل محمد شرارة إلى النجف في عام ١٩٢٠، وانخرط في حلقات الدراسة على أيدي علماء دين كبار هناك من أمثال النائيني والجزائري وكاشف الغطاء. لكن حسه النقدي والعقلاني في الآن نفسه وضعه في تصادم مع الكثير من المفاهيم السائدة والمستخدمة في التدريس، شكلا ومضمونا، فقاد حملة على المناهج، وسلّط سيف النقد على ما تحويه من غيبيات وبعد عن الواقع، إضافة إلى مخالفتها منطق العقل. هذا التحول في تفكيره جعله يخلع العمامة مبكرا، في حدود عام ١٩٣٦، مخالفاً بذلك رغبة والده في أن يصبح عالم دين. خلع العمامة هذا، سار عليه عدد من الدارسين اللبنانيين في النجف كان منهم الراحل حسين مروة ثم صدر الدين شرف الدين وغيرهما من الذين تحولوا إلى خيارات فكرية وسياسية لا علاقة لها بالأصل الذي أتوا العراق من اجله، وذلك عبر التحول إلى تيارات اشتراكية ويسارية.

بعد خلعه العمامة، تحول محمد شرارة إلى التعليم في المدارس الثانوية، لكن الجديد والأبرز هو انخراطه في الحياة السياسية في مرحلة اتسمت بصعود الحركة القومية والنضال من اجل التحرر من الاستعمار، فاستمر نشاطه السياسي، صاعدا أحيانا ومتقطعا أحيانا أخرى، حتى وفاته عام ١٩٧٩. تحول محمد شرارة إلى الاشتراكية، وانخرط في نضالات الحركة الشيوعية التي كانت تعيش حالة ازدهار في العراق، وكان في قلب السجالات الفكرية والسياسية التي شهدها العراق على يد التيارات الماركسية والليبرالية والقومية. في الخمسينات، وقبل انقلاب تموز عام ١٩٥٨، شهد العراق فترة اضطهاد وقمع على يد نوري السعيد، فأدخل شرارة إلى السجن ونزعت عنه الجنسية العراقية، مما اضطره للعودة إلى لبنان. استبشر خيرا بثورة تموز ٥٨ وانهيار الحكم الملكي، لكنه فجع بالمآل الذي تحولت الثورة إليه، حكما ديكتاتورياً أسوأ من السابق، واضطهاداً أصاب الشيوعيين، ومذابح وتنكيلاً بالقوى الديمقراطية المعارضة. لم يكن يوما على وفاق مع حكم حزب البعث، وهذا ما تسبب له بالاعتقال والسجن. عاش معاناة الحكم الديكتاتوري البعثي في العراق، وتضاعفت معاناته اللبنانية بعد اندلاع الحرب الأهلية وما سبقها من اعتداءات إسرائيلية كانت تطال الجنوب.

تشير بلقيس شرارة إلى محاور في تفكير والدها الأدبي ونشاطه، فقد كانت داره في بغداد ملتقى للأدباء والشعراء والسياسيين حيث كانت تعقد الندوات التي ساهمت في إطلاق الشعر الحديث. وكان له دور في تأسيس "الجمعية العاملية – النجفية" التي كانت تضم مجموعة من الشباب اللبنانيين والعراقيين الذين كانوا يدرسون في مدارس النجف، حيث تكونت لديهم آراء ناقدة للمدرسة الدينية ولبرامجها التعليمية. تحوّل محمد شرارة إلى الماركسية في الأربعينات، واتجه إلى استخدام التحليل المادي للتاريخ في كتاباته. اتخذ موقفا معارضا بقوة للأساليب المستخدمة في إحياء ذكرى عاشوراء، وخصوصا ما يتصل منها بالضرب بالسلاسل واللطم على الصدور وتدفق الدم من الجسم، ودعا إلى تهذيب المراسم بجعلها مراسم حضارية ترفع من سمعة البلاد ولا تؤذي صحة البشر، وهو موقف نال عليه محمد شرارة النقد والتهجم من رجال الدين في العراق.

تميز شرارة بموقف جريء في الدفاع عن حقوق المرأة، ودعا إلى المساواة الكاملة لها مع الرجل في الحقوق، وكان عقلانيا مؤمنا بدور أساسي للمثقف في تطوير الحياة الاجتماعية وفي تقدم البلاد علميا وسياسيا. دفعه انتماؤه إلى تيار الاشتراكية وتبني مفاهيمها النظرية وخصوصا الماركسية منها، إلى التزام الواقعية في الأدب والشعر والفن، على غرار ما كان سائدا آنذاك من إخضاع المفاهيم الفكرية والأدبية إلى تيار الالتزام السياسي واعتبار الواقعية الطريقة الصحيحة في التعبير عن مصالح الجماهير، إضافة إلى التأكيد إن هذه الواقعية هي المفهوم العلمي والصحيح الواجب التزامه في جميع الميادين.

كانت بلقيس محمد شرارة غنية ومعطاءة في ميادين متعددة، على رغم إن المعرفة بكتاباته وأفكاره لم تكن منتشرة في لبنان. في كلمة على قبره، يقدم شقيقه الراحل عبد اللطيف شرارة هذه الصورة عنه بالقول: "قد يخيل للواحد منا انه يعرف شخصا ما، لكثرة ما رآه أو سمعه، أو تحدث إليه، أو قرأ كتاباته أو اطلع عليها، لكنه يجد نفسه انه لم يكن يعرف ذلك الشخص معرفة تامة أو دقيقة، حين يقع بين يديه مثلا كتاب أو رسالة أو أثر كان على جهل به، في حياة ذلك الشخص، وحتى خلال معرفته به". وهذا ينطبق تماما على محمد شرارة وفكره."

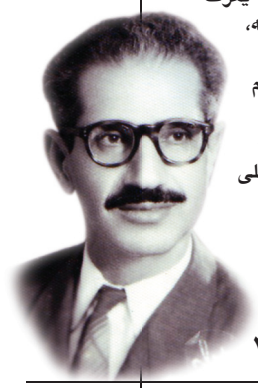

كاتب لبناني
النهار ٢٠٠٩/١٠/٢٨

عاش معاناة الحكم الديكتاتوري البعثي في العراق، وتضاعفت معاناته اللبنانية بعد اندلاع الحرب الأهلية وما سبقها من اعتداءات إسرائيلية كانت تطال الجنوب. تشير بلقيس شرارة إلى محاور في تفكير والدها الأدبي ونشاطه، فقد كانت داره في بغداد ملتقى للأدباء والشعراء والسياسيين حيث كانت تعقد الندوات التي ساهمت في إطلاق الشعر الحديث

لسيرة محمد شرارة كما ترويها بلقيس محمد شرارة مدلولان عميقان! أولهما يُعيد إلى الاذهان و لاسيما أذهان الأجيال اللاحقة التي كادت أن تتقطع صلتها بتضحيات الرواد الأوائل و نتاجهم الأدبي أو الفكري أو الثقافي، تجربة كاتب و مثقف علماني واجه حصاراً خانقاً و لم يهن أو لم يتراجع و ما بدل تبديلاً.
أما المدلول الثاني فذو طابع وطني و قومي لارتباطه بسيرة مجتمع بأسره. أو قل نحن أما سيرتين متداخلتين و قد بذلت بلقيس شرارة جهداً توثيقياً لا يخفى على القارئ الممحص ذي الحاسة النقدية أو الشغوف بمتابعة حركة التاريخ ذات الخطوط الحلزونية التي لا بد أن تبقى راسخة في ذاكرة المؤرخ و القارئ على السواء، لأن مثل هذه الخطوط قلما يخلو من آثار الدم!

شهادة في كتاب بلقيس شرارة محمد شرارة

محمد زينو شومان

و قد أبدت بلقيس شرارة في مقدمة كتابها بعضاً من الصعوبة في التزام الموضوعية التزاماً مطلقاً على الرغم من حرصها الشديد على تقصي الحقيقة، و ذلك بشدة تشابك الأحداث و ترابطها إلى حد يستحيل معه سلّ الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فكيف إذا كانت خيوط تلك المرحلة من تاريخ العراق الحديث تُسلّ لا من صوف و لا من حرير بل من أوردة أبناء العراق و آلامهم.
و سل عن ذلك المسألة التي كانت تحاك بها هذه الخيوط فعندها خبر جهينة اليقين!
و خوف بلقيس شرارة في محله فهي أولاً إنسانه من لحم و دم و قد كانت شاهد عيان على ما جرى من فظائع و أهوال و تبدُّل مواقع و انهيار تحالفات و انعقادَ أخرى في مثل لمح البصرِ.
و هيَ ثانياً إنما ذاقت بعضاً من معاناة والدها الذي كان منزله عرضة للمداهمة و التخريب و إلقاء الرعب في قلوب الأبناء.
ثم إنها شاءت أن تهزّ وكر الدبابير، أو تحريك جمر سياسي و تاريخي يغفو نصف إغفاءة بأصابع الحبر لا بملقط الحديد.
و هل تحريك جبلٍ بركاني يُسمّى العراق أمراً سهلاً كمثل إطفاء عقب سيجارة على سبيل المثال؟
و هل العراق برأيكم، يسمح لأجفان التاريخ أن تنام؟ و هل أغمض هو عينيه يوماً ليستريح قليلاً و يريح أبناءه من كوابيس التمرد و الدم و الخوف و القلق؟
فكأنما مسعاه بعيد بعيد و خلاصة ليس في الحصول على تلك الجزرة المعلقة في رأس العصا، بل في معاندة الأقدار و السباق العبثي خائفاً أن تسقط العصا في يده، لأن في سقوطها تفقد الجزرة بعدها الاسطوري و تغدو الحياة لقمة سائغة سهلة الابتلاع و في متناول أصغر الكائنات و أضعفهم و ذلك ما يُفسد على العراق، طَعْم السعي إلى عشبة جلجامش!
عفواً إذا كانت هذه المقدمة طُعْماً للتشاؤم الذي قضى محمد شرارة حياته لاستبداله بطعْم النضال و المواجهة و الصبر الأيّوبيّ الطويل.
فكيف إذاً خرج من معطف الدين قاطعاً ذلك البرزخ الهائل بين صراط اليمين و صراط اليسار؟
كيف دخل محمد شرارة برجله اليمنى طالباً دينياً أقصى طموحه الشخصي و طموح والده الشيخ علي شرارة هو التزوّد لعالم البقاء، بالمفهوم الديني، لا لعالم الفناء، ليخرج منها برجله اليسرى إلى رحاب عقيدة دنيوية لم تكن في الحسبان مطلقاً. فيا للطاقة الكبرى!
ما سرّ هذا التحول! هل لنقص في المناعة الدينية، و أين ذهبت عقاقير الطقوس كلها و حقنُ التراث التقليدي و جذورُ العادات المتأصلة التي تفوق جذور السنديان صلابة و تغلغلاً هذه في أعماق الأرض و تلك في أعماق النفوس.
ترى بلقيس شرارة على الخروج من قمقم التقليد هو اصطدامه المبكر باساليب التعليم الجامدة المتبعة في جامعات النجف و مدارسها، و تضيف إلى ذلك عاملاً آخر هو تنوع مصادر ثقافته التي أتيحت له من خلال بعض الصحف

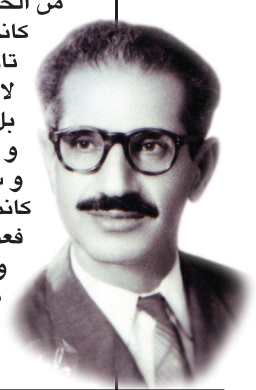

بعد هذا التحول في بداية الاربعينيات من القرن الماضي، بات النضال جزءاً من عقيدة محمد شرارة و حياته. و مع انخراطه في حركات الاحتجاج و التظاهر و التنديد و انكشاف وجهه كخصم للسلطة ليس باليد فقط بل باللسان و القلم أيضاً. أصبح رأس محمد شرارة مطلوباً للسلطة عاجلاً أم آجلاً

و المجلات العربية، التي كانت تصدر في مصر و لبنان و سورية و العراق آنذاك. بالاضافة إلى مصادر أوربية و غربية، خصوصاً ما كان يتعلق بالنقد و الشعر الحديث.
و قد عُرف عن محمد شرارة إبان فترة الدراسة في النجف حدةُ النشاط و توقد الذهن و طيب المعشر و ذلاقة اللسان و سعة الاطلاع.
و كان له دور بارز في جمع عقد الشعراء في النجف و تأسيس "الجمعية العاملية- النجفية" التي كان من أعضائها الشيخ محسن شرارة و الشيخ علي الزين و السيد هاشم الأمين و حسين مروة بالإضافة إليه. و قد ضمت أيضاً من شعراء النجف عبد الرزاق محي الدين و صالح الجعفري و محمد صالح بحر العلوم.
لذا لم يكن لمثل ظاهرة محمد شرارة أن تبقى حبيسة المحيط الضيق جداً الذي لا يتعدى المساحة الفكرية للتراث الديني الذي هو أشبه بالرحى التي تدور على نفسها و لا طحنٌ لها إلا الاجترار، و الحفظ الببَغائي، و استعادة مفاهيم الماضي بقضّها و قضيضها، من دون أن تمرَّ بغرابيل النقد، أو تثق بدور العقل و أثره في التقدم و التطور.
و هكذا حال البيئة النجفية التي وجد محمد شرارة نفسه فيها تارة تُعلي السياج التراثي التقليدي من حولها، ليكتمل مفهوم الحجاب الذي بانسداله على وجه المرأة و وجه العقل، معاً، يسيطر الظلام المطلق، و يصبح الحجاب مرادفاً للقبر هذا يواري الميت و ذاك يواري الحيّ.
و لو كان لميزان ريختر من شأن في رصد الهزات الداخلية و الفكرية داخل الانسان، لكان أبلغ في التعبير عن قوة الهزة الفكرية الايديولوجية التي ضربت أعماق محمد شرارة، كان سّجل لنا الدرجة التي بلغتها تلك الهزة حينذاك.
و كان خَلْعُ العمامة رمزَ الانتقال من ضفة إلى أخرى، و قد شاركه في التخلي عنها توأمه الروحي و الفكري حسين مروة و صدر الدين شرف الدين و هاشم الأمين. و لكن محمد شرارة المكتوي بسفود مناهج التعليم المتخلفة في جوازات النجف، عاد ليكتوي أيضاً بسفود مناهج التعليم الرسمي، الذي مارسه شطراً طويلاً من حياته، عقب اطّراح الجبة و دخول سلك التعليم الثانوي في العراق.
إذاً المصيبة واحدة. و ميدان المواجهة بدأ يتسع شيئاً فشيئاً كلما اتسع أفق محمد شرارة الإنساني، و كلما راح يقترب أكثر فأكثر من نقطة تحوله الإيديولوجي الاساسية و هي اعتناق الفكر الماركسي.
بعد هذا التحول في بداية الاربعينيات من القرن الماضي، بات النضال جزءاً من عقيدة محمد شرارة و حياته. و مع انخراطه في حركات الاحتجاج و التظاهر و التنديد و انكشاف وجهه كخصم للسلطة ليس باليد فقط بل باللسان و القلم أيضاً. أصبح رأس محمد شرارة مطلوباً للسلطة عاجلاً أم آجلاً.
و تفاقمت أساليب القمع ضده، و غدا مرمى لسهام الخطر من كل حدب و صوب. حتى إنه لم ينج من ظلم ذوي القربى الايديولوجية من أبناء الخط الفكري و العقيدي الواحد و رفاق الدرب حيث اتهم إبان فترة انقسام الحزب الشيوعي العراقي، بأنه من معسكر "الديمقراطيين المزيفين".
و ضُيق الخناق حول رقبته و تعددت وسائل التهديد و الوعيد، ففصل من وظيفته مراراً و أسقطت الجنسية العراقية، و حيل بينه و بين عائلته كأسلوب آخر من أساليب العقاب لإجباره على تغيير موقفه أو ترك معتقده، و دخل السجون و خرج منها و كأنه لم يدخل و لم يخرج.
و اضطر إلى مغادرة العراق مرات كثيرة إلى لبنان و بلدان أخرى كلما اشتدت حلقة الحصار حوله و لكنه لم يساوم.
هذا هو محمد شرارة المتمرد على الموروث، الثائرُ على السلطة، الداعي إلى نزع الحجاب، المدافعُ عن حقوق المرأة، حامل لواء الفكر العلماني، المنضّم إلى حركة السلام، المؤمنُ حتى العظم بالنهج الانساني الرافض للفروق القومية و العنصرية و الاثنية و الدينية، فقد وقف ضد الاعتداء الذي تعرض له اليهود في العراق، فأحرقت ديارهم و نُهبت متاجرهم إثر سقوط حكومة رشيد عالي الكيلاني في الاربعينيات من القرن العشرين.
و لكن لابد من وقفة أخيرة قبل الختام، نُحي فيها بلقيس شرارة على ما كابدته من مشقة توثيقاً و تبويباً و تأريخاً من جهة أولى، و على ما أظهرته من اتزان و جَلَد و موضوعية و عمق فهم للمعضلة العراقية المعقدة، و على صدق تجردها في تناولها لسيرة والدها.
و اعذروني و نحن متحلقون الآن حول ذكرى مثقف و شاعر مناضل أفنى عمره متمسكاً بعقيدته بدون هوادة، أن أعرج على بعض الملاحظات التي أشارت إليها بلقيس شرارة في مواضعها من هذا الكتاب و منها:
١- دفاعه المستميت عن عهد عبد الكريم قاسم و هو العهد الذي شهد محاكمات المهداوي و فضائحها، و قد أفاض محمد شرارة في كيل الثناء للعهد الجديد مادحاً الجيش و قائده بقصيدة عنوانها (الفجر فوق بغداد). و تعليقاً على هذا الموقف الذي يناقض نهج محمد شرارة و التزامه الفكري، تقول بلقيس شرارة "لكن التزام محمد شرارة الحزبي جعله يجد الاعذار في تلك الفوضى التي اعتبرها فوضى طارئة". ص(٢٩٨).
٢ – سكوته على أعمال العنف التي حصلت بعد انقلاب الشّواف الفاشل، بين الاكراد و التركمان في كركوك.
٣ – تبريره لتدخل الاتحاد السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا عسكرياً في ربيع براغ، و قد ورد ذلك في رسالة إلى ابنته حياة: "و مهما كانت المساوئ كثيرة في الاتحاد السوفياتي تبقى الدولة رجاء الشعوب". و المفارقة العجيبة أن الاتحاد السوفياتي الذي ظل يدافع عنه محمد شرارة و لايسوغ سلوكه التعسفي، لم يوفر له حتى مجال العمل يوم لجأ إليه شبه مطرود من الصين التي بدورها كافأته على نضالاته و عقيدته الاشتراكية برفض تجديد إقامة العمل لديها، و هو الذي شاهد فيها بأم عينه، كما يقول: --- حراثة الأرض في ضواحي بكين على الانسان.

القيت في المجلس الثقافي اللبناني الجنوبي ١١/ ٣/ ٢٠١٠

محمد شرارة .. من الإيمان إلى حرية الفكر

مازن لطيف

حاولت بلقيس شرارة في كتابها الصادر حديثاً " محمد شرارة .. من الإيمان إلى حرية الفكر" الصادر عن دار المدى ، جمع تراث والدها الادبي والثقافي وتقديمه للقارىء ، بعد مضي ثلاثة عقود من وفاته .
نشأ محمد شرارة في بيت عُرفَ بحبه للأدب والشعر ، ارسله والده الى مدينة النجف ليدرس العلوم الدينية عام ١٩٢٠ وتذكر بلقيس ان والدها حاول خرق الاجواء الضيقة التي يعيش فيها الطلبة ، لأن مدنية النجف كانت من أكثر المدن العراقية بعد العاصمة بغداد انفتاحاً على الثقافات الاخرى وسوقاً للنتاج العربي كله ، رغم الانغلاق الفكري من قبل المدرسة الدينية ، بدأ محمد شرارة الكتابة في الصحف العراقية بمقالات تنويرية وجريئة بالغة من صغر سنه، تحرر شرارة من قيود الدراسة الدينية ، وكتب مقالا بعد خلعه العمامة وخروجه من المدرسة الدينية ، وقد شن هجوم عليه من قبل المحافظين في المدرسة وكان المقال بعنوان " القلم الوديع " الذي نشر عام ١٩٣٦ في مجلة الهاتف التي كان يراس تحريرها الاديب جعفر الخليلي .
عين شرارة مدرساً للغة والادب العربي في ثانوية الناصرية عام ١٩٣٦ وتطورت مسيرته الادبية بالرغم من ان التدريس كان ياخذ اغلب وقته ، لكنه واصل واستمر في الكتابة ويذكر صديق عمره الشهيد حسين مروة ان العناصر الفنية ـــ الجمالية اصبحت جزءاً عضوياً من عملية الكتابة الادبية كعملية تكاملية. تحمل علاقة تطور في موضوع المعالجة ، وكانت كتابات شرارة تحمل هموماً وطنية وكونية وفكرية ، وتنوعت كتاباته وتميزن باسلوبه السردي والوصفي .. عشق شرارة مدينة بغداد وكتب عنها قصيدة بعنوان " أماسي بغداد" عام ١٩٣٨ ونشرت في مجلة العرفان قال فيها :

بغداد ! في الشفق الكئيب قصيدة
ولهن الروي شجية الابيات
إني لألمح شحوب سمائها
روحاً محطمة من الصبوات
بغداد ما حملت لك الايام
قلبي سوى الزفرات والاهات

بدأ شرارة الدخول والمشاركة في الحياة السياسية وشارك في التظاهرة التي نظمها الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٤٦ وكانت التظاهرات تطالب بخروج القوات الاجنبية من العراق. ، بدأت اطلاعاته على الفكر الماركسي ، وتعرض لمضايقات كثيرة فقد داهمت رجال الامن والشرطة داره عام ١٩٤٩ باعتباره احد المسؤولين الرئيسيين والمحرضين لأحداث تظاهرة من قبل طلبة دار المعلمين ، وتم توقفيه في موقف الكرخ وكان معه الشاعر بدر شاكر السياب وتعرف في الموقف على العديد من الشيوعيين وقد زاره العديد من اصدقائه منهم صفاء الحافظ ونزيه الدليمي وكاظم السماوي.. بعدها اطلق سراحه .
اسقطت حكومة نوري السعيد الجنسية عن الشخصية التقدمية حسين مروة وهو من اقرب اصدقاء شرارة فكانت خسارة كبيرة بالنسبة لشرارة الذى استضافه في اسبوعه الاخير في بيته قبل خروجه من العراق ، فقد كانا ـــشرارة ومروةـــ كالتوأمين .
تذكر بلقيس شرارة ان والدها عاش في عالم الادب والشعر ، عالم الحس المرهف والذائقة المفعمة بنكهة الحياة عندما كانت داره ملتقى الندوة الادبية ، بلقاءاته الاسبوعية مع الشعراء والادباء وغيرهم .. كان محمد شرارة معجباً بالشاعر معروف الرصافي في مقارعة السلطة وقد كتب مقالاً بعنوان " الرصافي جندي عنيد من جنود الحرية " نشرها في جريدة الاوقات البغدادية عام ١٩٥١ حيث اعتبره جندياً من جنود الفكر ، شهيداً من شهداء الحرية التي رآها مهانة في عهد الاستبداد الحميدي ، فيما يليه من عهود مظلمة .
كتاب " محمد شرارة .. من الإيمان إلى حرية الفكر" تألف من اربعة عشر فصلا وتألف من ٤٦٠ صفحة من القطع الكبير.

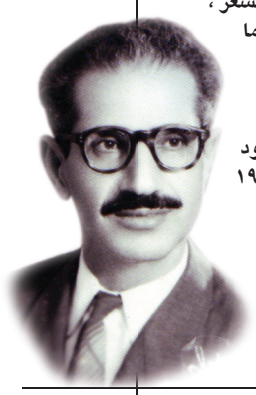

محمد شراره: من السياسة إلى الشعر خطوة واحدة

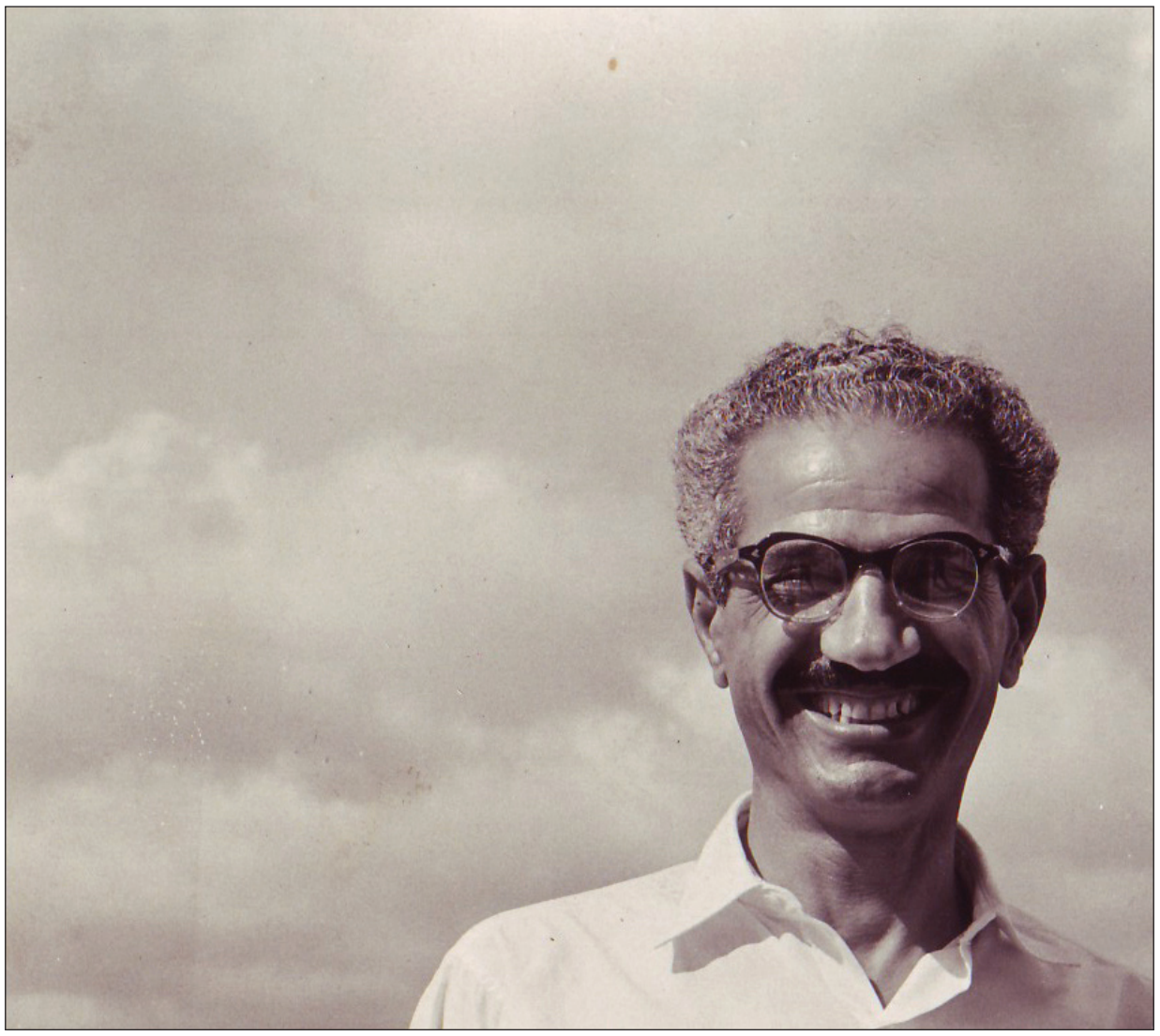

تكتب بلقيس شراره عن والدها، بل ترسم بريشتها لوحات في وصف مبدع. هذه الريشة، تعلّقت بأناملها تعلّقها وعشقها لأنامل كبار الفنانين، فما ترسمه ليس غريباً وخارجاً عنها، بل حياة عاشتها مع والدها وعائلتها. ذاقت حلاوتها ومرارتها امتصّت خلالها رحيقاً لتعطيه اليوم شهداً. تكتب وفي كتابتها عفوية وشفافية؛... عن حياته ومعتقداته وشعوره وآلامه، عن وطن مزّقته الأحداث، أحبّته وترعرعت وعاشت فيه، هو العراق، وعن وطن أمها وأبيها وأهلها هو لبنان.
محمد شراره هذا العصامي النشيط ابن بنت جبيل، أرسله والده إلى النجف ليتحصّن بالإيمان ويعود فينشره مرسّخاً التقاليد.

هنري عبد الله عيد

لكنه خلع عنه العمامة بعد نيله شهادة الاجتهاد، وتحصّن بالفكر والعقل، وسار في طريقه جريئاً مقداماً، فلم يلق طوال حياته التي خرج فيها عن التقاليد والرجعيات والتقوقع والتحجّر إلاّ الاضطهاد. تحرر من عمامته لكنه تمسّك بدين الإنسان في كل زمان ومكان. سلك الممرّات الصعبة، فمضى قدماً نحو قمم الفكر والتطوّر والرقي دون مساومة أو مواربة أو مراوغة مهما بلغت عظمة خصمه، وأحتكم للعقل وللواقع، ونبذ الوهم والإيحاءات والغيبيات... فكان يُفصل أحياناً من عمله في التدريس أو ينقل تأديباً من وظيفته إلى وظيفة أخرى أو مكان آخر تحت تأثير التقلّبات السياسية والاضطهاد تعسّفاً، فتُنزع عنه الجنسية بسبب مواقفه والمقالات التي كان

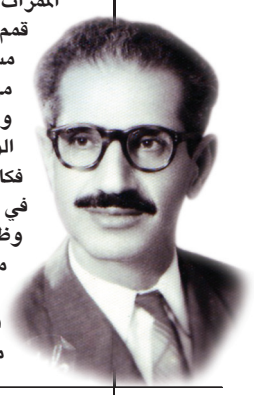

ينشرها في الجرائد، حتى استقر أخيراً في بغداد بعد أن اضطر للعيش أكثر من عقد ونصف بعيداً عن عائلته.
عرَفتْ محمد شراره من كتاباته وهذا الكتاب(•) فرأيته متواضع النفس شريفاً صادقاً صبوراً على المصائب، مترفعاً بدون تكبّر. يكره المخادعين والكاذبين، والمداهنين والمتملّقين. صارع الظلم بالعداء، ودافع عن معتقداته، فلقي الأذى بسبب صراحته، التي لم يخف منها عقاباً ولم يأمل منها ثواباً لقد دافع عن الحرية منتصراً على الخوف وعاش بالحق الذي يحرره ويقويه، فهو صريح الرأي لأنه حرّ، حاد الطباع لأنه مرهف الإحساس. "عقلاني المنهج، علماني التفكير، إنساني الانتماء؛ يدحر بجرأة أكاذيب في التاريخ الإسلامي والمزاعم العربية... حكم عليه بالسجن عدة مرات بسبب آرائه وخرج منه، "لكنه دخل منطق العقل ولم يخرج منه فهو كما يقول بروتون: La logique cest la plus haïssable des prisons.
المنطق هو أكره السجون".
وتعلّق محمد شراره بالأدب العربي تبحراً وتطويراً، دَفعهُ إلى إقامة ندوات وحلقات حوار ومسامرات أدبية وشعرية ضمّت كبار المثقّفين والشعراء والأدباء: كنازك الملائكة، وبدر شاكر السّياب، ولميعة عباس عمارة، وأكرم الوتري، وبلند الحيدري، وكاظم السماوي وحسن الأمين، وحسين مروه و محمد مهدي الجواهري وغيرهم. وأصبحت داره كما كانت دار والده من قبل ملتقى رجال الفكر والأدب. وكانت الندوات التي يعقدها للجنسين من الشباب والشابات ومن الرجال والنساء تقديراً لمساواة المرأة بالرجل ولفكرها ومقدرتها وعطاءاتها؛ وهي ظاهرة "لم يشهدها العراق في حينه ولا في ما بعد".
أجاد الشعر الكلاسيكي المقفّى والشعر الحديث رغم الاعتراضات التي أثيرت حوله وكأني به من رأي ميشو الذي قال: "أين هو الفارق بين الكلاسيكيين أولئك، والمحدثين هؤلاء الذين إذا اختلفت عليهم الكأس، وتبدّل الساقي، بقي لهم جميعاً أن يسكروا بكلمة، ويُسكرونا بها، وأن يقتادوا أذواقنا وأسماعنا إليهم".
وتنسجم بلقيس إنسجاماً كاملاً مع والدها في إنتفاضاته ومقاومته وردود فعله الخاضعة لمشيئة العقل، وفي نبذه كل ما حيك من خارق وعجيب وعادات وتقاليد ونصوص دينية تكبّل الإنسان داعياً للتخلي عنها من أجل التنوّر والتنوير.
فمحمد شراره اتجه نحو العقل بعد أن كان في البدء يستعمل نصوصاً غيبية في الثلاثينات من القرن المنصرم، وأصبح ماركسيا في بداية الأربعينات متجها لمعالجة قضايا حقوق المرأة وأسلوب التعليم، وحياة المجتمع... فثار ضدّ الرجعية الدينية، وحارب الاستعمار والحكم العثماني والاحتلال البريطاني، وثار على النظم المتوارثة بأفكار جديدة، ناقداً، لاذعاً، ثائراً على كل شيء لا يقرّه منطق، نهم بالعلم والمعرفة لا يرضيه القليل، ولا يعرف الكلل ولا الملل، بحركة دائمة، مؤمن أنّ الجمود يقتل المرء ويدمّر الحياة، مُجدداً في عهد غلبت عليه التقاليد وسنن المحافظين، يكتب كما يريد مستقلاً برأيه النابع عن شخصية وعقيدة وإخلاص، ثائراً على كل رأي فاسد قديم، "فقد تألّم من الناس وتألّم لآلام الناس". قاوم السلطة والحكّام الظالمين، والتقاليد المتجمّدة البالية البعيدة عن مفاهيم التطوّر، كما قاوم العوز والإحباط والاضطهاد وغالب الدنيا فغلبها أحياناً وغلبته.
كان يحترم الإنسان كإنسان بغض النظر عن طبقته وعرقه ولونه وانتمائه الدينّي. فالاختلاف العرقي والديني وغيره لا يشكل قاعدة لأفضلية ولا لدونيّة،... شجاع متوقّد الفكر كبركان يثير من حوله، فبالرغم من الحزن الذي ألمّ به عند سقوط فلسطين، كان يميّز اليهود كشعب، وأحياناً يدافع عنهم، خاصة عندما قويت الضغوطات عليهم فتركوا العراق. لكنه كان يكره دولة دعمتها الصهيونية العالمية واغتصبت بذلك أرض الشعب

الفلسطيني، الذي هجّر من دياره ليعيش في غربة دائمة.
عايش الانقلابات واقتنع بأنه: "عندما تصبح الانقلابات والانقلابات المضادة سائدة، تقترن العقلية الانقلابية دائماً بالتآمر. ويصبح المجتمع المراد إنقاذه الضحية الأولى". كما ان إيمانه أن جميع العسكر الذين تولوا إدارة الدولة الحديثة في العراق سواء في العهد الملكي الدستوري أو في العهد الجمهوري يجهلون السياسة.
وكتب عن الاستهانة بحقوق الإنسان.
ووصف بأسلوبه الشائق ضرب بائع "الصمون". فهو يؤمن بمساواة الناس، ويتألم من الفروق الطبقية، ويعود السبب في ذلك إطلاعه على حركة التنوير في القرن الثامن عشر و"الكتب اليسارية التي كانت متداولة في ذاك الحين بين الطبقة المثقفة" والنظرية الماركسية التي اعتنق مبادئها وأصبح "من حركة أنصار السلام".... وقد منعته استقامته من اعتراضها وانتقادها بعد أن أصبح عضواً ملتزماً في الحزب الشيوعي ناسباً ذلك إلى سوء تطبيق وأخطاء يمكن تصحيحها؛ ولم يجد في مخيّلته بديلاً منها، فوقع في حيرة. "وخاب أمله عندما رأى الكذب والنفاق والبذخ عند أعضاء الحزب الشيوعي، والتعاسة التي يعاني منها الناس في أبسط الأمور الحياتية". فعاد إلى لبنان قائلاً: "لا يزال في رأسي بعض المثاليات التي لا أودّ أن تزول".
وأسف على الذين دخلوا السجون وتعذبوا ومنهم من مات لأجل عقيدته".
إن انتساب محمد شراره للحزب وتعاطيه السياسة لم يجلبا له السعادة بل السجن وفقدان عمله والهوية، وحالات من العذاب والإحباط والتهجير وغير ذلك. ومحمد كان قريباً للسياسة "لأن السياسة هي قصة فكر وإنسان" وكما قال بومبيدو: "من السياسة إلى الشعر مسافة خطوة واحدة" فالشعر كما السياسة شعور مع الناس.
كان يعارض التقديس فقال: "من نافذة هذا التقديس أطلّ الخطر على تطوّر الحياة..." فلم يكن يفسّر الظواهر تفسيراً غيبياً دينياً، بل تفسيراً علمياً بني عليه العلم الحديث.
كما أن فكر محمد شرارة العلمي المتحرّر من الإيمان الغيبي لم يتنبه لما أورده المفكر والأديب الأستاذ سليم باسيلا في كتابه "المودات": "إن النظريات كالحضارات تموت أيضاً، وإن المجهول يتربص بالعلم، ويتدسس إليه والعلم يترصده، ويتحرف له، على أن يبقى عائداً بالروح يوم لا نجاة له بنفسه إلاّ بالروح". فالصراع بين الفكر والدين معروف منذ القدم عند الكثير من الفلاسفة، ومحدودية الفكر والارتقاء البطيء الذي يتطلّب آلاف السنين.
محمد شراره كان من "أنصار السلام" رقد في مقبرة "دار السلام". وصادف "في الفترة التي مُحي فيها اثر قبره من الوجود؛ أن انهار الاتحاد السوفياتي... ولو كان محمد شراره حياً لتعرض لأكبر إحباط... زوال رؤية متكاملة الوجود رافقته أربعين عاماً من عمره، عاش من أجلها وكتب عنها وقد منحته متعة وحيوية وأملاً لحياة أفضل لكافة البشر... بنيت عليها آمال الأحزاب الشيوعية في العالم. في تخليص البشرية من الآفات... من الظلم

عايش الانقلابات واقتنع بأنه: "عندما تصبح الانقلابات والانقلابات المضادة سائدة، تقترن العقلية الانقلابية دائماً بالتآمر. ويصبح المجتمع المراد إنقاذه الضحية الأولى". كما ان إيمانه أن جميع العسكر الذين تولوا إدارة الدولة الحديثة في العراق سواء في العهد الملكي الدستوري أو في العهد الجمهوري يجهلون السياسة.

والتعسف والفقر والجهل...".
"قطع محمد رحلة الحياة الطويلة واتخذ الدرب الوعر وحاول عبوره وتخطيّ المصاعب والمطبّات بصلابة وعناد، ولكن انتهت حياته ولم تتحقق أحلامه وآماله وظلت بعيدة المنال!!!
"إن الحياة التي عاشها محمد شراره هي أشبه ما تكون بالمأساة التي عاشها العراق، ولا يزال يعيشها... عراق الثورة والسجن والغربة ! لذا أصيب محمد بالخيبة والإحباط في الوجود في آخر أيام حياته".
إن الكلام عن كتاب بلقيس هو كالكلام عن وردة وعطرها، وهل يمكن الكلام عن محمد بدون الكلام عن بلقيس وأسلوبها السلس الناعم، والسهل الممتنع، والتسلسل المنطقي.... وصفت بلقيس الفرح والخوف، والمرض والموت، والإهانة والتعذيب. كما ان وصفها بلغ غاية التأثير في وفاة أمها، وتعذيب أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، منهم سلام عادل، وحسين الرضيّ وجمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وجورج تلو وغيرهم، مما يجعل القارئ يتمالك في لملمة دمعاته كما أظهرت دفاع محمد شراره عن الحرية والمصلحة العامة لأنه آمن بالإنسان كإنسان، وعبّر في مقال ورد فيه: "إن الرجل الحرّ لا يعرف الخضوع لشهوة من الشهوات إذا وقفت في طريق المصالح العامة، ويدوس على كل شيء من مصالحه الذاتية...".
كل ما أوردته مسند إلى وثائق أو تصاريح حدّدت مراجعها وتواريخها.... تعيش الأحداث وتصفها وصفاً دقيقاً، حتى يخال للقارئ أنه يشاهدها تمرّ أمامه كشريط سينمائي، وثائقي، تاريخي، لأحداث ولجغرافيا طبيعية واجتماعية، بأدب عريق وقلم فياضٍ من أقلام كبار المعرفة مدعم بعراقة ثقافة وغزارة موارد وخبرات، نور من الفكر يضيء الظلمة المتخبط فيها هذا الشرق. ترسم لوحات، فإذا ما انتهت من مشهد بدأت مشهداً آخراً يحتفل بمناظر الطبيعة والحياة المليئة بالعادات والتقاليد وغيرها، بعيدة عن الرتابة. ثم تنتقل من وصف السراديب في النهار إلى السطوح في الليل، ومن الطقوس والشعائر الدينية، ومنها ملحمة ذكرى مقتل الحسين ولوحات عاشوراء في يوم "الطبك" إلى وصف ساعات الفراق، والمدافن، وحرب الكويت ونتائجها من إهانات وإذلال للجيش العراقي وانهياره وغير ذلك.
فكتاب بلقيس مستند تاريخي لزمانه، تاريخ أدبي لم يمسك به الزمان يوم كان للعراق جمال الأيام وغناها وضوح طيبها ولذيذ طعمها، تشوبها سياسات رعناء.
في حديث مع أحد قضاة الشرع في كربلاء وهو صديق قديم لمحمد شرارة التقاه في الطائرة وهو في طريقه إلى انكلترا قال له: "لقد كان زماننا كله هرماً فلم تمرّ به طفولة ولا شبيبة!... والحقيقة إن العلاقات في الشرق كلها هرم. ومن هنا المآسي التي لا تعرف الحدود؛ فإذا كانت فيهم روح مرحة كروحك كانت زهرة الصحراء".
ما أصدق هذا الكلام الذي عشناه ونعيشه وربما يعيشه أبناؤنا وأحفادنا في العراق ولبنان وأكثر الدول العربية، نتلهى بأمور تبعدنا عن حقيقة الحياة وتطوّر العصر. ليت حكامنا وسياسيينا وهم في غيّهم يعمهون، يعون ماذا يفعلون ويخلصون. والعمر يمضي والضمير يستتر...
لقد أبدعت بلقيس في سرد حياة وفكر والدها، فإذا كان من المحزن أن يدفن المرء أمّه وأخته وأباه... فمن الألم الشديد أن يرى وطنه يحتضر وهو عاجز عن القيام بأي عمل تجاه قوى الشرّ التي تمعن تخريباً بعد أن أصمّ الجشع آذانها وأعمت المصالح بصائرها، واُستنفدَ الفكرُ والعقلُ والصلاة والدعاءات، ولم يبق إلاّ الرجاء والإيمان لقيامة هذا الوطن باستفاقة الضمير.
محمد كان شراره لشعلة الحريّة في ظلمة الاستبداد والتخلّف. تألّق نوره، وما كاد ينتشر حتّى تلقّفته الأحداث، فتجلّد لها وتلقّاها يدافع بقلمه وفكره. ظلّ يعارك لغاية آخر رمق من حياته، حتى قضت الأيام على آخر شعاع من أشعّته، فغارت شمسه في أفق تاركة إشتياقاً لإطلالة وإشراقة من صباحه.

أستاذ هندسة جامعي ، هنري عبد الله عيد
جريدة النهار- ٢٠٠٩/١١/٢٢

محمد شرارة الشجرة الوارفة

محمد سعيد الصكار

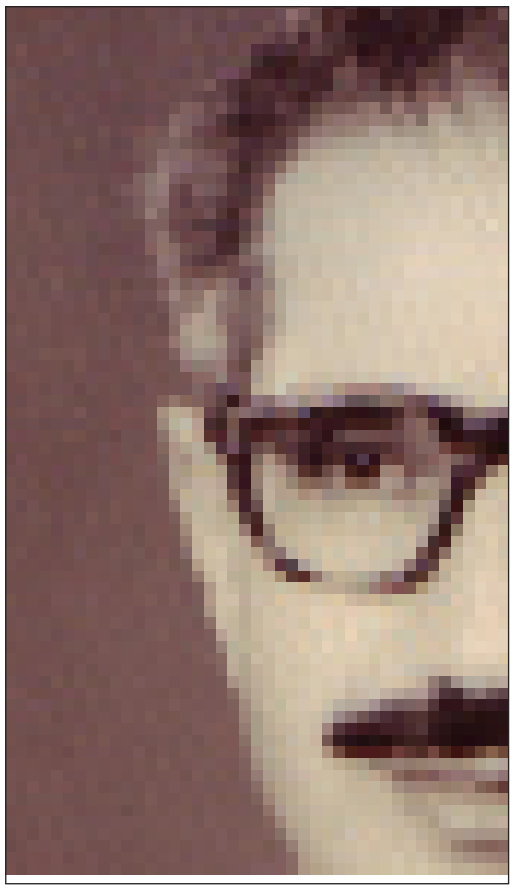

قلت للسيدة بلقيس شرارة،في حوار تلفوني قبل اسبوعين،إنني لا أستطيع التعقيب على جهدها البارع فيرسم صورة لأبيها الإنسان في كتابها (محمد شرارة – من الإيمان إلى حرية الفكر)،ذلك الإنسان الذي أتحفني الزمان بالتعرف عليه فيما أتحفنا يومذاك،يوم كنا في مهرجان الشباب والطلاب في موسكو عام١٩٥٧؛ فلست من الكفاءة النقدية التي تفي الكتاب حقه.
كنا نتمشى في الشارع القريب من فندقنا في موسكو،عندما التقيته، وعرّفني على زميلة كانت معه؛ هي (محسنة توفيق) التي صار لها شأن كبير في مجال الفنون المسرحية، والمواقف الوطنية.
كان ذلك عام١٩٥٧.
ولم نلتق إلا بعد ثلاثة أعوام في خلية حزبية شيوعية،شاء الحزب أن أكون مسؤولاً عن تنظيمها بعدغياب منظمها الشاعر محمد صالح بحر العلوم لأسباب لا أعرفها.
وكانت الخلية تضم عدداً من الكتاب والأدباء المرموقين،من بينهم عبد الرزاق عبدالواحد ورشدي العامل وغايب طعمة فرمان وسليم غاوي ومحمد شرارة؛ وكنت أصغرهم سناً،وكان ذلك يسبب لي حرجاً،إذ كيف لي أن أنظم شخصاً بقامة محمد شرارة الذى أضنى عمره في النضال قبل أن أولد أنا؟
ولكن محمد شرارة كان أخاً ورفيقاً وأستاذاً من الطراز الأمثل.
تقول السيدة بلقيس،في (ص٢٩٤وهامشها) إن اجتماعاتنا كانت تُعقد في بيت الشاعر محمد صالح بحر العلوم، والحقيقة إنها لم تعقد أبداًفي بيته،إنما كانت في بيوت أخرى من بينها بيت الشاعر عبد الرزاق عبدالواحد في الكاظمية. ولم يكن بيننا في هذه الخلية قطعاً عبد الوهاب البياتي وسعدي يوسف.
لم يكن أحد منا يظن أن محمد شرارة،هذا الكاتب المكافح على مدى ستين عاماًلميجد له مستقراً يؤيه،لا في بيروت ولا في بغداد،وهوينتقل من بيت إلى بيت اثنتي عشرة مرة في بغداد وحدها،وأنه وعائلته عانوا من عسر العيش والمطاردات في الرزق وفي العمل وفي الإنتاج الفكري هذه المعاناة التي كان يخفي علينا الكثير منها،نحن تلامذته ورفاقه،لعزّة نفسه ورفعته،ومعنوياته العالية واكتفائه بدوره التنويري الذي تجاوز منجزه الفكري إلى واقعه الكفاحي الذي لميبخل به في أحلك الأزمات. فطورد وحوصر وضويق،ولم يرم قلمه ولم يؤجل موقفه الوطني والإنساني لحظة واحدة. إنه من الشجرة الوارفة التي أرسلت أفياءها وهي تقاوم الريح والغبار وقسوة الطبيعة وظلام الأفكار.
بلقيس،في هذا الكتاب لم تكتف برسم صورة واسعة لحياة والدها،بل عززت ذلك بالنصوص الكثيرة التي تفصح عن دقة المعنى وحلاوة الأسلوب ووضوح الرؤية التي عُرف بها الفقيد. وراحت ترسم صورة مفصلة عن البيئة التي عاصرتها،والوضع السياسي،والحياة العائلية،فجاءت بالكثير من الممتع والمؤلم لما في بغداد في ذلك الزمان،موثقة ذلك برسائل ومقابلات جعلت الكتاب وثيقة أدبية وسياسية،وأغنته بهوامشها الشخصية التي منحته نكهة أدبية رغم اختلاط المناهج التي اعتمدتها والأغلاط التي حفل بها الكتاب،نحوية ولغوية وإخراجية،وقد أخبرتني بأسبابها،وهي التدخل بأنظمة تصميم الحروف،ممايستلفت العناية في طبعته التالية،وهو ما وعدتني به المؤلفة،فلها الشكر على ما وعدت وما أنجزت.
محمد شرارة يستحق منا أن نتملى إنجازه الفكري والأدبي بوجه خاص،في مدار أوسع مما في الكتاب. فهو ساحر الأسلوب دقيق المعاني أنيق العبارة بارع التحليل،سواء في مساجلاته الفكرية والسياسية،أم في كتاباته الإبداعية؛ وفي كتابيه (نظرات فيتراثنا القومي) و (المتنبيين البطولة الإغتراب) الذين جمعتهما ابنته الفقيدة حياة شرارة الكثير من تلك النصوص الثمينة الجديرة بالمراجعة والتقييم.

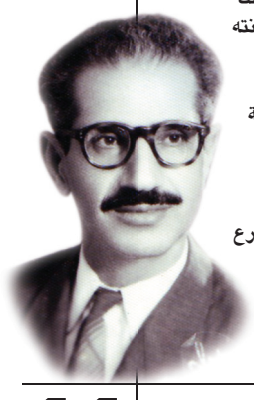

محمد كان شراره لشعلة الحريّة في ظلمة الاستبداد والتخلّف. تألّق نوره، وما كاد ينتشر حتّى تلقّفته الأحداث، فتجلّد لها وتلقّاها يدافع بقلمه وفكره. ظلّ يعارك لغاية آخر رمق من حياته، حتى قضت الأيام على آخر شعاع من أشعّته، فغارت شمسه في أفق تاركة إشتياقاً لإطلالة وإشراقة من صباحه.

أغنية الذكرى من "ديوان شفق الفجر"

لمحمد شرارة
يخطئ خطأً كبيراً من
يعتقد بإمكانية حلّ ألغاز
القلب الإنساني، أو معرفة
أقرب أصدقائه بالتفصيل،
إذ تومض في حياة كل فرد
أحاسيس و أحداث ذات أهمية
قصوى لا يمكن، الكشف عنها،
و هي التي تحرك بالخفاء
المشاعر و التصرفات التي
يقدم عليها الإنسان.

كوكب مرّ في الواحاتِ مرّ رواةُ
قصتنا
و ما كانت حكايتنا
سوى قبلة... على خد
على عنق من البلور و العاجِ
و ما كانتْ سوى وقفة
على طلل بلا خيمة
و ما كانتْ سوى نظرة
إلى برقٍ بلا غيمة
سوى صوت تردده
و تسكبه على زهرة
وراءك نحلة حلوة
و تمتص الندى عنها
و تبقي فوقها قطرة
و تبدأ: كان يا ما كان إذا ما
حانت السهرة

× × ×

و كنت وديعةً كالظل تحت
ذوائبَ النخل
كقبّرة
تراقبُ عشها المعبود في الحقلِ
كسائرة على الأرض
تقدّس فوقها المسرى
لها في كل منعطف على
جنباتها ذكرى

× × ×

و كنت ذكّيةً كحمامة السرب
الذي وقعا
سرى في ضوء رؤيتها و شقّ
الجوّ و ارتفعا
و طار و طارت الأشباك
تحت عزائم السربِ
يشدُ الريش أجنحةَ
تلملمها و تحميها
قلوبٌ لم تعد في السرب. سوى
قلب.. سوى حب!

× × ×

و كنت صغيرةً كالنجم
كالإلهام كالسحرِ
كومضِ الوحي مرّ و حّط في
بيت من الشعرِ
و كنت بعيدةً كالنجم
كالأسطورة الحلوة.
يموت السندباد و لا تلوح
له جزائرها
و زورقه يذوبُ و لا
تطالعه منائرها
و كنت صغيرةً كالبرعمِ
الفتّانَ في الوادي
كشاديةٍ على نهر
يذوّب صوتها الشّادي

× × ×

و كنت رقيقةً كالصوتِ
في لغة العصافير
و ناعمة كعطرِ الليل
في حقل الأزاهير
و كنت جميلةً كالمرج
كالزيتون في الغابة
كأغنية تحومُ على
بقايا وردة ظمأى
على صدرٍ
على شفةٍ
على أوتارٍ حبّابة

× × ×

و كنت قصيدةً تاهت
على الرؤيا معانيها
ترفرفُ في دروب الشمس
غائمة أغانيها
و كنتُ أطوف تحت الغيمِ
أبحثُ عن سرٍ
رأيتكِ صدفةً في الليلِ
ضائعة على الدرب
و خلفك نجمةُ العشاقِ هاربةٌ
إلى الغرب
فكنت هديةً للقلبِ و النغماتِ
و الشعرِ

× × ×

و كان لقاؤنا سلكاً
يتمتمِ بين قلبين..
و تيّاراً من النظرات يسري في
جناحين
و كنتُ أذوّب الرّمان تحت
الدوح
و السكر
و أنقلهن
من قدحٍ إلى قدح
و رحت أوّزع الأقداح
و في رأسي
غيومِ النشوةِ الكبرى
و لم أشرب
سوى نَفَس من العطر!
و مرّت في يديك يديَ
فلم تعبث
و لم تلعب
و لم تشعر
بغير القدس يسري في
أناملها

× × ×

و رحتُ ألّم عن شفتيك ما في
الكرم من عنب
و أبني من تمائمه
حمىً للروح و الأنفاس
من دوّامة اللهب.
و كان هواك كالأحلام
كالنبضات في القلبِ
كساقية الضياءِ إذا
مشت برسالة الحب
كتمتمة الطفولة إن
تحرك تحتها المهدُ
كوجه الطفل لمّا لاح فوق
عيونه النهد
كشلال
من الياقوتِ و الفيروزِ و
الذهب
يهدهدُه
لعابُ الشمس تحت خمائل
الغَربِ

× × ×

و ذاب الليلُ و انطفأت
ذبالاتُ القناديل
و لم تبق سوى الذكرى
تلّوح بالمناديل.
و أمواج من الأجراس في قلبي
و في روحي
تحمحم ثم تحملها خيولُ
الريح في الريحِ

١١ × ×

أحبك فوقَ ما ضّمت
من الوجدِ الأساطيرُ
و ما لّمت من النفحات
و العطر القوارير
و حبّكَ رايةُ الأنصارِ في غَضَب
البراكين
يظللني وَ يحميّني
إذا ما اشتدت الحمى هنالك..
في الميادين

× × ×

إذا ما سرتُ فوق الصخرِ
و الأشواك كنت معي
و في الأزمَات و الظلماتِ كنتِ
سراجيَ الهادي
أسيرُ على أشعته
كعملاق من التاريخ
يهز الرِيحَ و الأبواب و يكسرُ
صخرة الوادي
و يسري في غبارِ الدهرِ شلاّلاً
من الومض
و تزحفُ خلفه الراياتُ
من أرض إلى أرض.

× × ×

و لما أدخلوني السجنَ
كنت حمامة النجوى
سمعَتكِ فوق نافذتي
حنيناً
نغمة نشوى
و صوتاً يحمل النسماتِ و
الآهات و السلوى
و في شَفتيك ما في الوردِ
من شوقٍ و من غضب
و في خدَيك ما في الكرمِ من
وردٍ و من عِنبٍ
لعاً.. فتانّة العَنين
و الخطوات و القامة
ستبقى الشمسُ في وطني
تغازل فيه أنسامه
و يبقى الحبُ في نجدٍ ينابيعاً و
في رامه
و أنت هنالك.. في التاريخ
رؤىً.. أقصوصة.. نظرة
و صوتٌ يحمل العوذات و
الأقداس في نبرة
ستبقى الشمس في وطني
له ما دمت تعطيه
و تغنيه بما حملت يداك له و
تحميه
لعاً.. فتاّنة العينين و اللفتات
و القامة
غدا في الشام موعدنا على
الربوات تحت الحورِ
في دمّرَ و الهامة
و في بغداد حيث المجد يعيد
الدورةَ الكبرى
إلى الأفلاك.. و التاريخ و
يبني فيه أعلامه.

× × ×

نظم محمد شرارة هذه
القصيدة بعد أن خرج من
السجن

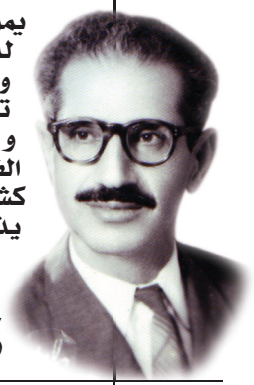

محمد شرارة من الإيمان إلى حرية الفكر لبلقيس

شرارة: سيرة عبر تاريخ حقبة وتحولات بلدين

حسن مروة

«محمد شرارة، من الإيمان الى حرية الفكر» كتاب في ٤٦٠ صفحة، صدر عن «دار المدى» عام ٢٠٠٩، للكاتبة بلقيس شرارة، بدافع من فهمها لعوامل الزمن التي غالباً ما تأتي على سير شخصيات هامة، لم توفر لها الظروف فرصة لتوثيق ما أنتجته خلال أحداث عايشتها وانخرطت في فعاليتها واكتوت بحرائقها، في العراق او في سواه من البلدان العربية. وهي تخشى ان يطوي النسيان ما قدمه والدها من اسهام معرفيّ وتجربة كفاحية طوال نصف قرن، لذلك تجتهد الابنة كي تبعث من بين الرماد ما تعرض للحرق والاتلاف، فتؤيده بشهادات مجايلين، رفاقاً وأصدقاء او تستقي ما يعززه من ارشيف صحف ودوريات وكتب ورسائل، وتفلح في اعادة تشكيل الأحداث والمشاهد، وترميم آثار أدبية جمّة، فإذا هي مبثوثة عرضا في ثنايا الفصول، وفق ما يقتضيه سياق السيرة، برجاء ان يشكل هذا المؤلف «امتداداً لهذا الإنسان في الزمن بعد الموت».

بداية تحرص المؤلفة على ان تضيء ما أحاط بنشأة محمد شرارة، منذ ولادته عام ١٩٠٦ في بنت جبيل، مركز التواصل والممر الإجباري ما بين جبل عامل وسوريا وفلسطين طوال الحقبة العثمانية، وفي فترة ما بين الحربين العالميتين حتى وقوع النكبة عام ١٩٤٨، ودار والده الشيخ علي موئل لمجالس الأدب والشعر والمراجعات الدينية والاجتماعية في اجواء تحث على نشدان العلم ورفض الاستغلال.

ترعرع صاحب السيرة في كنف والده الشيخ المحكم والمشرّع والمستخير، وتلقن على يديه علوم العربية منذ حداثته، كما رباه على الإقدام، ثم دفع به ليكنز العلم في النجف وهو على عتبة الرابعة عشرة، فأرغم على مغادرة ملاعب طفولته وبواكير مراهقته وحبّه الاول، لكن إحساسه بالقهر ظل قابعاً في أعماقه، يطل بين سطور المقالات او القصائد، وكأنها تعبير عن انفجار الذات المقموعة، متسائلاً: «الى متى تبقى قصائدنا مناديل الوداع؟».

ما بين النجف وبغداد، مروراً بالناصرية فكربلاء وأربيل والحلة، نرافق محمد شرارة في حلة وترحاله، وسط ظروف عيش قاسية لم تخفف منها تقلبات العهود ما بين ملكية دستورية تحت سطوة الانكليز، او جمهورية استبدادية او ثورية تسلطية، فنجده في داره او بين خلانه لا يفارقه التفاؤل برغم ما يواجهه من الشدائد، وما يتعرض له من الملاحقة جراء آرائه ومواقفه، وكثيراً ما حورب في رزقه وفصل من عمله، او اعتقل وخضع لاحكام المجالس العرفية وسجن بسبب انضمامه الى حركة السلام، او تعرض لاسقاط جنسيته، او ضمت اسمه قوائم الاغتيال، ما يضطره للجوء الى لبنان، او الصين، ليزاول اعمالاً مؤقتة، فإذا لاح بارق أمل في شبه استقرار عاد الى العراق ليستأنف نشاطه في حمأة اوضاع متقلبة ودموية، لم تنج عائلته من عسفها، الى درجة اعتقال الابناء بديلا عن الأب الغائب، او منع الابنة من لقائه بزعم كونه من «الديموقراطيين المزيّفين» بحسب رفاق الدرب... وقت تسود عبادة الفرد ويتحول الحزب الى ميليشيا تسوس الشعب بالسياط، في خدمة الزعيم الأوحد او القائد الملهم!

منتدى أدبي

خلل سرد شيّق مشوب بالقلق، تعرض المؤلفة للجانب العاطفي والعائلي من حياة والدها، ولموقفه من المرأة فنراه يضيق بالأسوار التي تحول دون تفتحها وانطلاقها، تماماً كضيقه بتخلف الحوزة الدينية وعلومها التقليدية، ما يدفعه للخروج من إسارها وخلعه العمامة بعدما بلغ درجة الاجتهاد، وقراره العيش معتمداً على نفسه بدل ان يصير عالة على الفقراء. وترى المؤلفة ان ثورته على المدرسة الدينية كانت بهدف جعلها «أكثر اتساعاً ووحدة مع الأفق».

أينما حل محمد شرارة، في مدن العراق، كانت داره تتحول الى منتدى للأدباء، والشعراء والمتنورين، وبينهم اسماء لامعة، في طليعتها نازك الملائكة وبدر شاكر السياب ولميعة عمارة، وكثيرون من رجال الأدب والفكر والسياسة عراقيين وعامليين، أواسط القرن العشرين، وهنا تتبدى لنا قدرة الإنسان المستنير على التملّص مما يرسم له، ومجابهة الواقع، بدءا من منطلق فردي، يلتقي تاليا مع منطلقات عامة وأطر جماعية، لكن الواقع المتخلف نادرة ما تواتيه القدرة على انتاج دينامية فاعلة تحسن التعامل مع الازمة، او التخطيط للتغيير بأساليب متقدمة او غير تآمرية، وسرعان ما يغرق المناضلون في أتون فورات انقلابية تحكمها الفوضى وضيق الأفق والروح الفردية والتسلطية، حيث يتجلى العنف بأبشع صوره تجاه الآخر، وكوسيلة مفضلة للإمساك بالسلطة في ظل شعارات ثورية. ثم تتعاقب القوى المتناهضة للقبض عليها بوسائل القمع والترهيب، ولا تحسن مرة الإفادة من تجارب السابقين، لتؤول الى المصير عينه، وهكذا يزدحم الكتاب بوقائع ذات صلة بحياة وكفاحية محمد شرارة، تضيء جوانب مرحلة بكاملها، وتفضح سلوكيات وممارسات أحزاب لا تطيق الاختلاف في الرأي، ولا تقبل تداول السلطة بوسائل سلمية، ما يبعث الشقاق والاضطراب في حاضر الجماعات والأفراد.

تحرص المؤلفة على ان تضيء ما أحاط بنشأة محمد شرارة، منذ ولادته عام ١٩٠٦ في بنت جبيل، مركز التواصل والممر الإجباري ما بين جبل عامل وسوريا وفلسطين طوال الحقبة العثمانية، وفي فترة ما بين الحربين العالميتين حتى وقوع النكبة عام ١٩٤٨

سياق هذه السيرة تغلب فيه صورة المناضل على صورة المفكّر، ومع ذلك تتشكل الشخصية الأدبية لمحمد شرارة تباعا على امتداد صفحات الكتاب، وللقارئ ان يستجمع شتات هذا الجانب الهام خلل الفصول المتعاقبة وفق المراحل الزمنية، ليخلص الى اعتبار أدبه نثراً وشعراً انما يجيء وليد مكابدة، ويطفر عفو الخاطر، جراء معاناة متعددة الوجوه، ولم يكن نتاجه في الغالب وليد تفرغ او عناية خاصة، سوى ان كتاباته تتسم على الدوام بالواقعية، وآراءه في الأدب والفن تنافح عن الالتزام بقضايا المجتمع، وقصائده تنم بشاعرية غنائية مهمومة بتطلعات الإنسان وحاجته الى الحرية والعدالة والإحساس بالكرامة، وهو ينفذ الى جوهر هذه المسائل بأسلوبه النقدي والتحليلي، انطلاقا من ايمانه بحتمية انتصار الاشتراكية.

للجرأة والصراحة والإخلاص أثمان باهظة، غالبا ما يدفعها اصحاب الأقلام الصادقة والنفوس الحساسة والرأي الحر، دون ان تنال من عزائمهم، فتكبدهم الكثير من المتاعب والآلام والحرمان من الاستقرار ودفء الحياة العائلية، وهذا غيض من فيض ما واجهه محمد شرارة طوال حياته في العراق، وشطراً يسيراً منها في لبنان، حتى وافته المنية عام ١٩٧٩، فيما الحروب العبثية ترخي بأثقالها على احوال البلدين، وما تزال تجر ذيولها حتى الساعة.

إلى ذلك ينبغي التنويه بالجهد المبذول في توثيق مفاصل السيرة ومنعطفاتها، مما يطال آراء ومواقف نخبة من الشخصيات المعروفة في الوسط الأدبي والفكري، ويؤسس لتناول متعدد الرؤية، وقراءات مختلفة، وحسب الأدبية انها تشيد عمارة لا تشيخ، لأب مكافح، فيما تعمد آلة الاستبداد الى تدمير مثواه في روضة دار السلام!

يبقى ان نشير الى هنّات كان بالإمكان تفاديها بشيء من الحرص، كي يخلص هذا المؤلف الثري من شوائب لغوية لا يليق ورودها بين سطور كتاب يمثل شاهداً غير هيّاب، على بؤس حقبة من تاريخنا المعاصر، وهو يراوح فوق جغرافيا مثخنة، ولكن... عزيزة.

جريدة السفير ٢٠١٠/٣/١٧

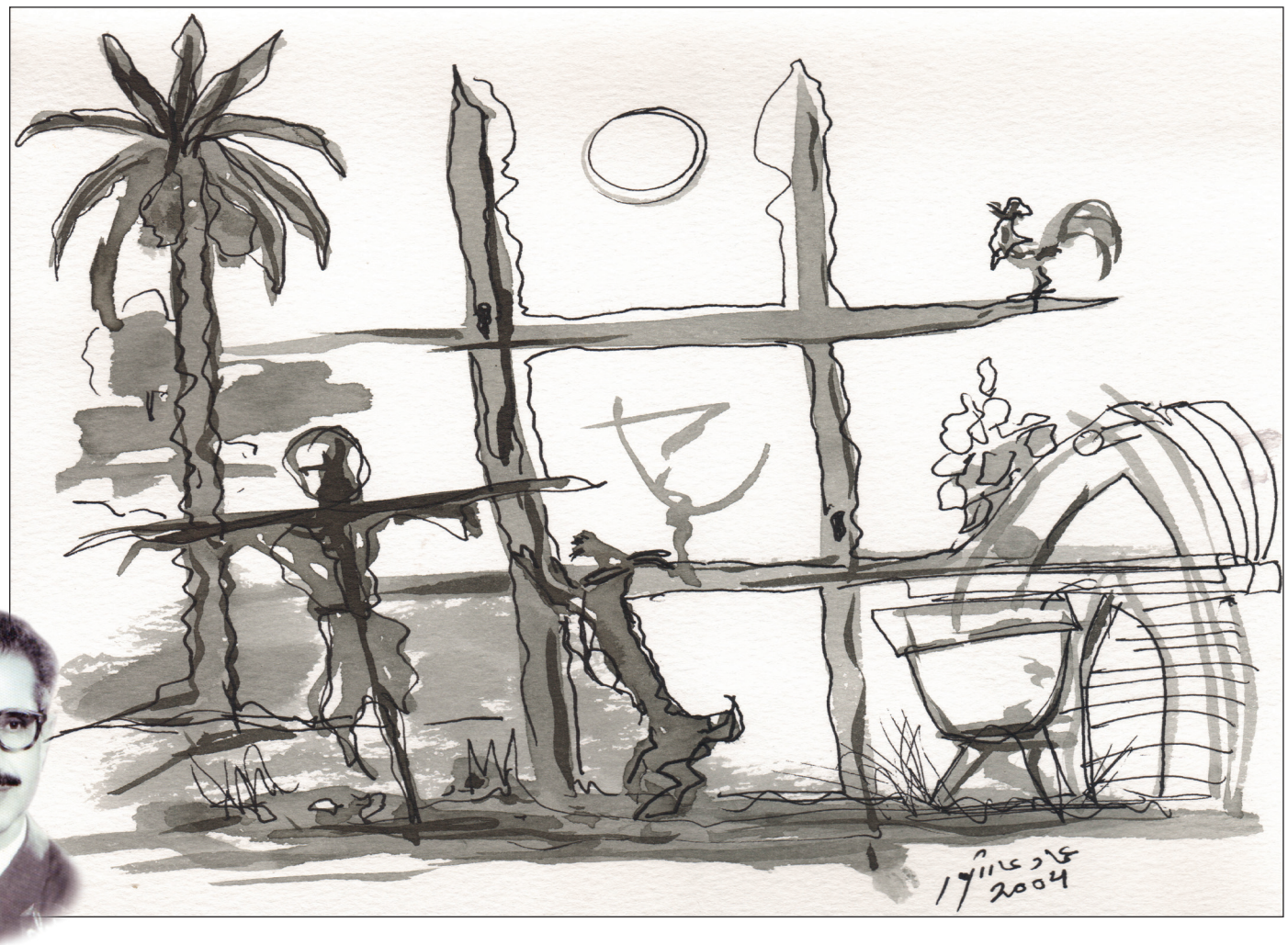

محمد شرارة هو مثقف لبناني في ولادته ونشأته، وعراقي في مجمل نشاطه الثقافي والسياسي، وفي معاناته الطويلة حتى آخر لحظة من حياته. وُلد في عام ١٩٠٦ في بلدة بنت جبيل. وهي مركز القضاء المحاذية قراه لمنطقة الجليل الأعلى، المنطقة الشمالية من فلسطين القديمة، التي يقول المؤرخون إنها امتداد لجبل عامل اللبناني. وكانت بلدة بنت جبيل الجنوبية هذه وبعض البلدات الجنوبية الأخرى المجاورة لها مركزاً معروفاً لنشاط علماء الفقه الشيعي، الذين يحصلون معارفهم الفقهية الدينية في جامعة النجف العراقية. وهي جامعة قديمة يعود تأسيسها إلى ما قبل ألف عام، كما يؤكد المؤرخون للحقبة الشيعية الإثني عشرية في الإسلام.

محمد شرارة .. بقلم كريم مروة

كريم مروه

كان والد محمد شرارة، الشيخ علي شرارة، رجل دين. وكان جده لأمه رجل دين أيضا، هو الشيخ موسى شرارة. وكان عدد من أقارب والده وجده رجال دين من النوع ذاته. وكانوا جميعهم يتميزون بأنهم جمعوا في نشاطهم بين اهتمامهم بدراسة الفقه الديني وبتدريسه لتلاميذهم، وبين الاهتمام بالأدب، بما في ذلك نظم الشعر. وكانوا، في الوقت عينه، يمارسون نوعاً من النشاط السياسي، تجلّى في شكل خاص في مناهضة السلطنة العثمانية، وفي الارتباط معنوياً بالحركة المنادية بإقامة دولة عربية موحدة، ثم بالوقوف ضد الانتداب الفرنسي والاشتراك بالانتفاضات الشعبية التي عرفتها المنطقة في ثلاثينات القرن الماضي. ويقول بعض الذين أرّخوا لتلك الحقبة من تاريخ جبل عامل اللبناني الجنوبي أن الشيخ علي شرارة والد محمد كان معروفا بعلمه وأدبه، وبحضور مميز في المنتديات العلمية والأدبية، وأنه كان مختلفا عن كثير من أقرانه في عزوفه عن التقليد والجمود في الدين والأدب والاجتماع، وأنه كان ضليعاً في اللغة العربية، وكان إلى ذلك شاعراً.

في هذا المحيط الديني والأدبي والوطني، ولد محمد شرارة ونشأ ومارس طفولته ومراهقته. وكان من الطبيعي، وفق تقاليد تلك الحقبة، أن يبدأ أبناء هذا الوسط الديني حياتهم منذ الطفولة في عالم الدراسة الدينية، والتعرف على المبادئ الأولية في اللغة العربية. وهذا بالذات ما واجه محمد شرارة منذ مطالع حياته الأولى بالتزامه واجب الالتحاق بالدراسة الدينية في مدرسة والده، بخلاف ما كان يفعل الأبناء الآخرون الذين كان عليهم أن يلتحقوا بالكتاتيب القائمة، التي كانت تنتشر في البلدات والقرى. وفي مدرسة والده الشيخ علي تابع محمد الدراسة الدينية واللغوية مع زملاء آخرين له، وكان بينهم صديق عمره منذ الطفولة حسين مروة. وكان والده يجبره على حفظ القصائد المشهورة لكبار الشعراء القدامى والمحدثين، وهو لما يبلغ العاشرة من عمره. وكان يعاقبه عقاباً صارماً إذا هو ارتكب خطأً. فقد كانت تلك هي الطريقة التي كان يربى بها الأطفال في ذلك الزمن. وهي كانت تربية شديدة القسوة. وكان يكلفه والده بمهمات تعود في الأساس إلى الأكبر سناً. وكانت تتطلب منه الانتقال من بلدة إلى أخرى في المنطقة، والعودة إلى منزل الوالد في بنت جبيل في وقت متأخر من الليل. وكان عليه أن يسلك طرقا موحشة تكثر فيها الضباع التي كانت تهاجم المارة وتهدد حياتهم. والأمثلة على تلك المغامرات وأحداثها كثيرة في المنطقة. وكان محمد ينفذ المهمات من دون تلكؤ، ومن دون خوف من المخاطر التي كان يعرفها ويعرف حجمها. والجدير بالذكر أن تلك المرحلة هي ذاتها المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى وترافقت معها. وكانت مرحلة مليئة بالمآسي التي عانى منها اللبنانيون في مناطقهم كلها،من أعمال قمع ونهب كان يمارسها الانكشارية الأتراك، وحالات جوع انتشرت وأودت بحياة الكثيرين. وهي الأوضاع التي قادت في تلك الفترة بالذات العديد من اللبنانيين ومن بينهم أبناء منطقة الجنوب إلى الهجرة إلى بلدان الاغتراب في أفريقيا وأميركا الجنوبية، البرازيل والأرجنتين خصوصاً. وتقول حياة أصغر بنات محمد شرارة في تعريفها بسيرة والدها، أن ظروف تلك المرحلة من حياته قد هيأته لأن يكون الشخصية الثقافية والسياسية التي عرف بها فيما بعد، خلال دراسته الفقه في جامعة النجف في العراق، ثم في المراحل اللاحقة التي أعقبت خروجه من سلك رجال الدين، وانتماءه من الباب الواسع، وبجدارة، إلى عالم أهل الثقافة في ميادينها المختلفة، وإلى عالم أهل السياسية في المعارك التي خاضها ودفع من حياته ثمناً باهظاً لها، من دون أن يصيبه ندم، أو يأس، أو مساومة.

إلا أن هذه السيرة تتخذ في رواية الأديب والمفكر حسين مروة صديق عمر محمد شرارة صورة حية أكثر وضوحاً. ويتحدث مروة في روايته هذه لسيرة صديقه عن العلاقة الحميمة التي جعلت منهما توأمين منذ الطفولة في مدرسة الشيخ علي والد محمد، مروراً بالدراسة في جامعة النجف، وصولاً إلى المراحل اللاحقة حتى نهاية العمر، التي كان محمد هو السباق إليها. يقول حسين مروة في مقال طويل يستعرض فيه مراحل من علاقته مع محمد شرارة في الدراية في لبنان وفي العراق:

" تعارفنا ـ محمد وأنا ـ منذ مطالع العشرينات. إذ كان هو في نحو السادسة عشرة، وأنا في نحو الرابعة عشرة. وكما سبقني هو إلى الحياة سنتين، سبقني إلى طلب العلم في النجف سنتين أو أقل قليلاً. وسبقني أيضاً إلى الخروج من حظيرة أهل السلك الديني إلى مجالات النشاط الاجتماعي الحر. ثم سبقني ـ وأأسفاه ـ إلى مغادرة العيش المادي في الحياة. تعارفنا أول مرة، يومذاك، في بنت جبيل حيث ولد محمد وعاش طفولته وفتوته... تعارفنا هناك كطالبين عند والده العالم الشيخ علي شرارة، وكنا أكثر من طالبين. كنا مجموعة من الطلبة الفتيان ننتمي إلى عدة أسر دينية في جبل عامل، أي أننا كنا في مرحلة الإعداد للدراسة الدينية العليا في النجف. كنا نعيش معاً، بمعنى أن محمداً وأنا كنا نشترك في وجبات العيش اليومي، كما نشترك في تفاصيل النشاط الدراسي. أستاذنا واحد، والمادة العلمية واحدة، والكتاب الذي ندرس فيه المادة العلمية واحد. نتدرّج معاً هكذا من علم المنطق إلى علم البلاغة، فإلى علم أصول الفقه، فإلى كتب الفقه نفسه، فإلى المحاضرات الفقهية خارج الكتب. وهي بمنزلة الدراسة العليا الجامعية التي تدور على الموضوعات وحدها دون الارتباط بكتاب معين. وهذه هي المرحلة الدراسية النهائية التي توصل إلى مرتبة الاجتهاد الفقهي، أي المرتبة العلمية التي يفترض بها تمكين العالم من استنباط الأحكام الفقهية بناء على القواعد والأدلة المقرَّرة في علم أصول الفقه. هذه المرحلة الأخيرة لا حدود زمنية مقررة لها، وإنما يحددها زمنياً مدى نضج الطالب من حيث قدرته على الاستخدام العلمي، أي الاستخدام الصحيح لقواعد الاستنباط، أي بلوغه درجة الاجتهاد. فقد يطول المدى الزمني لهذا النضج، وقد يقصر، تبعاً لما يتوفر من جهده ومن مخزونه المعرفي ومن قابلياته الإبداعية.

"لكن، من يحدد بلوغ الطالب درجة الاجتهاد هذه، وكيف يحدد؟ لا جواب هنا، لأن التحديد ومقاييس التحديد لا تخضع لنظام ولا قاعدة، كما أنه ليس هناك من طقوس ولا مراسيم. غير أن هذا الفراغ الفوضوي قد فسح في المجال لأمر ذي أهمية بالغة، هو رقابة "الجماعة" أو شهادة "الجماعة". لقد كان هذا الأمر، حتى عهدنا بالنجف، هو المصدر الأوحد لكل المقاييس والقواعد والحدود، لأن رقابة "الجماعة"، كما عرفناها، كانت رقابة صارمة وحاسمة. فإن عين "الجماعة"، أي الرؤية المكونة لدى الوسط الدراسي بجملته، أساتذة وطلبة، كانت المرجع الذي لا يقبل الجدل في تمييز العالم الحق من أدعياء العلم..

"من أين وكيف تتكوَّن هذه الرؤية ـ الشهادة؟

"تتكوَّن بفعل التقاليد التاريخية الإيجابية لهذا الوسط الدراسي، كما عرفناه في أخريات العهد بهذه التقاليد. فهي تقاليد تنهض أساساً على أن العلاقة بين الأستاذ والطالب ليست علاقة التلقي والاستماع، وإنما هي علاقة حوار ومناقشة حتى منتهى الصراحة، ومنتهى الحرية للطالب أن يبحث موضوع الدرس خارج الكتاب المقرر، وخارج النص الراهن، وخارج رأي الأستاذ هذا أو لا. وأما ثانياً، فإن اللقاءات اليومية بين أهل هذا الوسط الدراسي من أساتذة. وطلبة، مهما تكن دواعي اللقاءات وأجواؤها، لا يمكن أن تحدث دون أن تطرح فيها مسألة ما من مسائل العلوم الداخلة في إطار المنهج الدراسي التقليدي. وحين تنطرح المسألة لا بد أن يكون لكل من يحضر اللقاءات صوت ورأي وموقف. وفي الغالب يكون السكوت حينذاك علامة العجز، لا علامة الوقار...

"إذن، يكون من طبائع الأشياء، موضوعياً، أن لا يفلت أحد من رقابة "الجماعة" المتعايشة في هذا الوسط يومياً، تعايش اختبار وامتحان دائمين وعضويين، ويكون من طبائع الأشياء، بعد، أن ادعاء العالم في هذه الحال لا يغني عن العلم، وأن كلاً منا في

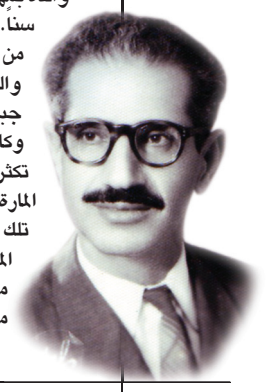

هذا الوسط، يجد في عين "الجماعة" صورته الواقعية التي ترفض الادعاء والزيف وتزين الذات بغير حق..

"كان محمد شرارة في طليعة مجموعتنا المتمردة على ذلك التزمت الصارم. وهي المجموعة التي تكونت. عفويا. أواخر العشرينات، داخل الوسط الدراسي النجفي، من بضعة نفر لبنانيين وعراقيين أطلقنا عليها آنذاك اسم " الشبيبة العاملية . النجفية". كان محمد في هذه المجموعة أبرزنا أقداماً على خرق جدار التزمت ذاك، وأبرزنا تطلعاً إلى التخطي العملي لذلك الأفق الثقافي الضيق ولتلك الرؤية الشحيحة القاصرة البائسة لمعنى العلم والمعرفة. فقد أوسع محمد دائرة اطلاعه، خارج هذا الأفق وهذه الرؤية، إلى جهات عدة، لا إلى جهة واحدة. لم تقتصر دائرة اطلاعه على كتب الأدب العربي القديم والمعاصر، ولا على المجلات العربية الصادرة يومئذ في مصر ولبنان وسوريا والعراق. بل أقدم بجراءة وجسارة على فتح هذه الدائرة من طرفين، لكي يضيف إليها. أولاً. قراءات جدية في كتب العلوم الإنسانية كافة لمختلف الباحثين العرب والأجانب ولمختلف التيارات الفكرية والإيديولوجية، ولكي يضيف إليها. ثانيا . معرفة إحدى اللغات الأجنبية الغربية، وكانت الإنكليزية هي التي تتوفر وسائل البدء بدراستها في النجف ذاتها آنئذ".

ويظهر بوضوح من هذه الشهادة التي قدمها عن محمد شرارة صديق عمره حسين مروة أن الرجل كان يتهيأ منذ وقت مبكر لأن يكون ذا شأن في حياته الثقافية والسياسية.

ولم ينفرد محمد شرارة وحسين مروة في طريقة انتقالهما من جامعة النجف الفقهية إلى عالم الثقافة والسياسة والفكر المتحرر. بل سبقهما، ورافقهما، ولحقهما، عدد آخر من كبار أهل الثقافة في العراق وفي لبنان. وكان الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري والشاعر والمؤرخ اللبناني الشيخ علي الزين من كبار هؤلاء الذين انتقلوا من عالم المعرفة الدينية الفقهية، وبالإستناد إليها، إلى عالم المعرفة الأكثر اتساعاً والأكثر غنى والأكثر ارتباطاً بحركة الحياة. وتشير سِيَر هؤلاء الكبار إلى أن كلاً منهم اختار طريقه إلى الحياة في شكل مختلف عن الآخر. وإذا كان الجواهري اختار الشعر، وإذا كان حسين مروة اختار النقد ألادبي والخوض في التراث، فإن محمد شرارة اختار كلا من النقد الأدبي والاجتماعي والشعر، واختار معهما الانغماس في البحث الفكري والنهضوي، الذي أوصله في مطلع النصف الثاني من عمره إلى الماركسية، وإلى النضال من أجل التغيير الديمقراطي في العراق وفي العالم العربي وفي العالم على أساس هذه المرجعية الفكرية تحديداً. وهكذا اختار، بعد الانتهاء من الحصول على كل ما كان يتطلبه وجوده في جامعة النجف من معرفة عالية في الفقه والفلسفة، وبعد أن أرهقته حياة التزمت في النجف، اختار أن يخلع زي رجل الدين ويبحث عن مكان آخر له في الحياة وفي معتركها. فودع النجف وجامعتها، وبدأ يبحث عن عمل في وظيفة حكومية. وكان ذلك في عام ١٩٣٦. وكان قد تزوج في عام ١٩٣٠ من اللبنانية زهرة شقيقة المؤرخ الشيخ علي الزين. ثم أخذت عائلته تكبر مع مرور الزمن وتزداد متطلباتها. وكان يهمه كثيراً تعليم بناته، بخلاف التقاليد التي كان هو أسيرها بحكم موقعه كرجل دين. وكانت تقلقه صعوبة إقدام رجل الدين على تعليم بناته في النجف. وكان، وهو في موقع رجل الدين، يتطلع إلى الحياة العلمانية، التي رآها تتجاوب مع أفكاره المتحررة ومع مشاعره المرهفة، بعد أن كان قد تملكه اليأس من إمكانية نجاح الدعوة لإصلاح الوضع الديني التي كان قد انخرط فيها مع زمرة من رفاق دراسته وبينهم حسين مروة. وكان يعتبر أن المهيمنين على الدين وعلى مؤسساته بعيدون في أفكارهم وسلوكهم عن جوهر الدين، وأنهم يقولون ما لا يفعلون. ففي مقالة نشرها في مجلة "الحضارة" في عام ١٩٣٨ تحت عنوان "الشعاع الروحي في أفق المدرسة الدينية" يتحدث حول هذه القضية قائلاً: "... والذي أعتقده أن هذه الدعوة يستحيل أن تقوم لها قائمة ما دام زمام الأمور بأيدي هذه الفئة. والدعوة إلى الإصلاح الديني، أو إصلاح المدرسة الدينية على الأصح. لأن الدين صالح بذاته وليس بحاجة إلى الإصلاح. هي نوع من العبث ما لم يبعث الله فئة جديدة تحمل في قلبها الإخلاص، وفي روحها رسالة العمل".

تقدم محمد شرارة في عام ١٩٣٦، مع نفر من زملائه رجال الدين، بطلب إلى وزارة المعارف العراقية للعمل في سلك التعليم. فلبّت الوزارة طلبهم. وعيّنتهم لتدريس اللغة العربية في المدارس الثانوية، رغم أنهم لم يكونوا يحملون شهادات جامعية. واستندت الوزارة في تعيينها لهم إلى الشهادات والإجازات في علوم اللغة العربية والعلوم الدينية التي زوّدتهم بها جامعة النجف. عين الشيخ محمد في مدينة الناصرية مدرّساً للأدب العربي في ثانويتها في عام ١٩٣٦. واستمر ينشر في مجلتي "الحضارة" و"الهاتف" مقالات كان يعالج فيها القضايا الفكرية والأدبية. إلا أن الحياة الجديدة كانت مضنية في جانبيها العملي والروحي. فالقيام بالواجبات التدريسية كان يستنزف وقته وقواه. يضاف إلى ذلك أن عقلية المدرسين ونظرتهم للحياة كانت سطحية، بعيدة عن العلم والثقافة، مما جعله يشعر بالغربة. ذلك أن الوظيفة لا تسمح لصاحبها بالاستقرار في مدينة معيّنة إلا بعد أن يمضي فترة من الخدمة فيها. وهكذا بدأت حياة التطواف والتنقل من مدرسة إلى أخرى في مدن العراق. فمن مدينة الناصرية إلى مدينة كربلاء ثم مدينة أربيل ومدينة الحلة، إلى أن استقر به المقام في العاصمة بغداد، في أواسط الأربعينات. وكانت مدينة الحلة من أحب المدن إلى نفسه قبيل المجيء إلى بغداد. فقد استطاع أن ينسجم مع الكثير من أهلها وأن يجد في المدرسة مدرسين ينسجم وإياهم فكرياً. واطلع في تلك الفترة على بعض الكتب الأجنبية التي أثرت فكره وجعلته يسعى إلى مزيد من المعارف والمفاهيم الجديدة. وهو يذكر بالذات في تلك الفترة كتابي "استشهاد الإنسان" لون ود ريد، و"دليل المرأة المثقفة" لبرنارد شو. ويتناول الكتاب الأول قضايا الحرب والدين والحرية والعقل، فيما يتطرق الثاني إلى الأنظمة التي مرّ بها المجتمع البشري كالرأسمالية والاشتراكية والنازية والشيوعية. ومما ساعد في تحول مواقف شرارة الفكرية في تلك الحقبة، التي بدأت في عام ١٩٤٢، الهزات الاجتماعية والأوضاع العاصفة التي أحدثتها الحرب العالمية الثانية وما تمخّض عنها من تبدلات عنيفة هزّت البنيان الفكري والاجتماعي للأنظمة القائمة، وأسفرت عن اندلاع نضال لا هوادة فيه من أجل الاستقلال والحرية في البلدان العربية، أسوة بالعديد من البلدان في آسيا وأفريقيا.

في عام ١٩٤٧ تعرفت إلى محمد شرارة، عندما ارسلني والدي الشيخ احمد مروه إلى بغداد لمتابعة دراستي في مدارسها الثانوية برعاية ابن عمه حسين مروة، وكان كل من محمد شرارة وحسين مروة قد أصبحا في عالم الثقافة والفكر التقدمي وفي السياسة علمين بارزين. كان محمد شرارة قد أصبح في الفكر ملتزماً بالماركسية، بعد أن جهد في قراءتها من مصادرها الأساسية، باللغتين العربية والإنجليزية. إذ كان قد باشر بتعلم الإنجليزية على يد أحد أصدقائه عندما كان يمارس تدريس مادة الأدب في مدينة الحلة. وصار منزل كل من حسين مروة ومحمد شرارة ملتقى للأدباء والمفكرين وأهل السياسة من الوطنيين من شتى الاتجاهات، ومنهم بعض قادة الحزب الشيوعي العراقي. وقد كنت أشارك في تلك اللقاءات الممتعة وأتعرف من خلالها إلى كبار أهل الأدب والسياسة. تعرفت إلى الشعراء الجواهري وبدر شاكر السياب وبلند الحيدري ونازك الملائكة وأكرم الوتري، وإلى الروائيين ذو النون ايوب وعبد الملك نوري، وإلى العديد من النقاد أخص منهم بالكر عبد القادر البراك. وكان حسين مروة وابنه نزار، الذي أصبح فيما بعد ناقداً موسيقياً مرموقاً، وأنا معهما، من رواد تلك الندوات التي كان يحفل بها منزلا محمد شرارة وحسين مروة. ولا أنسى حسن الأمين المؤرخ والشاعر اللبناني الكبير الذي كان رفيقاً لنا في تلك اللقاءات. وأشهد أنني بمقدار ما تعلمت من حسين مروة وتأثرت به وبأفكاره، كذلك مارس محمد شرارة تأثيره المباشر عليَّ في خياراتي الفكرية، التي نقلتني، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، وفي بغداد بالذات، إلى رحاب الفكر الاشتراكي، هذا الفكر الذي رافقني في حياتي حتى هذه اللحظة، في المنعطفات كلها التي عرفتها بلداننا، وعرفها العصر، وعرفتها حياتي أنا بالذات.

مارس محمد شرارة، حتى قبل أن يخلع زي رجل الدين ، مع زملائه في الدراسة، الكتابة في المجلات التي كانت تصدر في النجف وفي بغداد. وهي مجلة "الغري" و"البيان" و"المعلم الجديد" و"الهاتف" و"الحضارة". وكانت كتاباته تتنوع بين النقد الأدبي والنقد الاجتماعي. كما كانت تتناول، في الفترة التي أعقبت انتقاله إلى الاشتراكية، النقد السياسي من الباب الواسع. أما قصائده فكان ينشر معظمها في مجلة "العرفان" اللبنانية. وقد جمعت ابنته الأديبة حياة شرارة، قبل أن تقرر في أواخر التسعينات وضع حد لحياتها، العديد من أبحاثه وحولتها إلى كتب. وهي كتب في النقد الأدبي وفي التراث تشير بوضوح إلى منهج في النقد خاص به، جمع فيه بين القراءة المتأنية للنصوص، وبين دراسته للشروط الاجتماعية التي ينتمي إليها أصحاب هذه النصوص. وكان يرى من خلال منهجه النقدي هذا أن للأدب وظيفة اجتماعية لا يستطيع الأديب أن يتحرر منها، من دون أن يذهب برأيه هذا إلى الحد الذي يجعل الأديب داعية فكرية أو سياسية، كما حاول بعضهم في لحظة من اللحظات أن يعطي للواقعة الاشتراكية في الأدب وظيفة ومعنى قللا من شأن الإبداع الأدبي عند بعض المنتمين إلى تلك المدرسة. علماً بأن تلك المدرسة، الواقعة الاشتراكية، قد قدمت للثقافة العالمية أسماء كبيرة مثل الروسيين مكسيم غوركي ومايا كوفسكي والفرنسي أراغون والأميركيين هاوارد فاست وستاينبك، فضلا عن كبار من بلدان أخرى ومن بلداننا العربية بالذات.

ويعتبر كتاب "المتنبي بين البطولة والاغتراب" أكثر كتب شرارة تعبيراً عن منهجه في النقد الأدبي، وأكثرها تأكيداً لانحيازه إلى التجديد، وإلى الأخذ بالأفكار التي كانت تأتي بها التحولات التي شهدها العالم في المرحلة التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية، منذ مطالع الخمسينات والستينات في القرن الماضي. وكان شرارة في تحولاته الفكرية، كأديب وسياسي في آن، يواصل ما كان قد بدأه وهو في مرحلة الدراسة الدينية في النجف، أعني حركة التمرد والثورة والتجديد. ولم يكن بمقدوره أن يتوقف في منتصف الطريق، وهو المتقد حماساً، حتى في مراحل عمره المتقدمة، والمتحدث البارع، والمجادل الذي يستنفر في جدالاته كل ما يملك من معارف ومن وسائل إقناع. لكن شرارة، برغم انشغاله بالدب، كما دلت على ذلك مقالاته في المجلات العراقية، ثم في المجلات اللبنانية عندما انتقل في الخمسينات إلى لبنان هرباً من القمع الذي تعرض له، فإنه أكثر من انغماسه في العمل السياسي إلى الحد الذي جعله عرضة للاعتقال عدة مرات. وكنت شاهداً على واحدة من هذه الاعتقالات في عام ١٩٤٩. فقد زرته في معتقله في فترة كانت السلطات العراقية تحاول الانتقام من القوى الوطنية والديمقراطية التي كانت قد قادت الانتفاضة الشعبية في عام ١٩٤٨ وأسقطت الحكومة التي كانت قد وقعت معاهدة "بورتسماوث" المشهورة. وشملت الاعتقالات عدداً كبيرا من الرموز السياسية والثقافية، من بينها الشاعر الجواهري. وفي تلك الفترة بالذات أسقطت الجنسية العراقية عن حسين مروة وأبعد إلى لبنان.

لكن شرارة ظل يتعرض للاعتقال على امتداد حياته في العراق، كلما كان القمع يزداد شراسة، لا سيما في المحطات التي شهد فيها العراق انتفاضات شعبية كبيرة. وكان أهمها بعد انتفاضة عام ١٩٤٨ انتفاضة عام ١٩٥٢ التي هيأت الشروط لثورة الرابع عشر من تموز في عام ١٩٥٨.

وكان شرارة في عام ١٩٥٤ قد غادر العراق الى لبنان ليقضي بضعة أعوام في التدريس وفي الكتابة الأدبية. لكنه عاد بعد ثورة الرابع عشر من تموز إلى العراق. ولم يكد يمضي وقت قصير حتى بدأ يحس أن الوضع في ظل الجمهورية قارب أن يصبح شبيها بما كان عليه الوضع قبل ذلك. فغادر العراق إلى الصين. لكن ذهابه إلى الصين صادف انفجار الصراع الصيني السوفياتي. فلم يستطع البقاء طويلاً، لأنه كان قد اختار الوقوف الى جانب الاتحاد السوفياتي في ذلك النزاع بين الجبارين الشيوعيين فعاد إلى العراق بعد سقوط نظام عبد الكريم قاسم. وظل يواجه أقداره، وأقدار عائلته، في السجون والمعتقلات، وفي العوز، وفي القلق، وفي التشرد، إلى أن فاجأته نوبة قلبية حادة أودت بحياته في أواخر عام ١٩٧٩. وكنت قد زرته خلال سفراتي إلى العراق في أعوام ١٩٦٠ و١٩٦٢ و١٩٧٨. وكان يحدثني عن متاعبه، وعن قلقه، وعن اليأس الذي كاد يقتله من إمكان خروج العراق من مأساته الطويلة المضنية. وكان من أكثر مراراته وجعاً ما كانت تعانيه ابنته حياة، الأديبة، التي تميزت برهافة وغنى وعمق دراساتها في العديد من الكتب التي نشرتها. فقد كانت هي وزوجها عرضة للاعتقال، الذي انتهى بزوجها إلى الموت البطيء بعد أعوام من السجن قضاها في التعذيب النفسي والجسدي.

وهكذا غادر محمد شرارة الحياة كمثقف عراقي، وهو اللبناني الذي أتى إلى العراق مع العديد من اللبنانيين، وصار عراقياً بكل المعاني. ولذلك فهو يشكل مع عدد من هؤلاء المثقفين اللبنانيين . العراقيين نموذجاً يستحق أن يدرس.

كاتب ومفكر لبناني عاش فترة من حياته في العراق

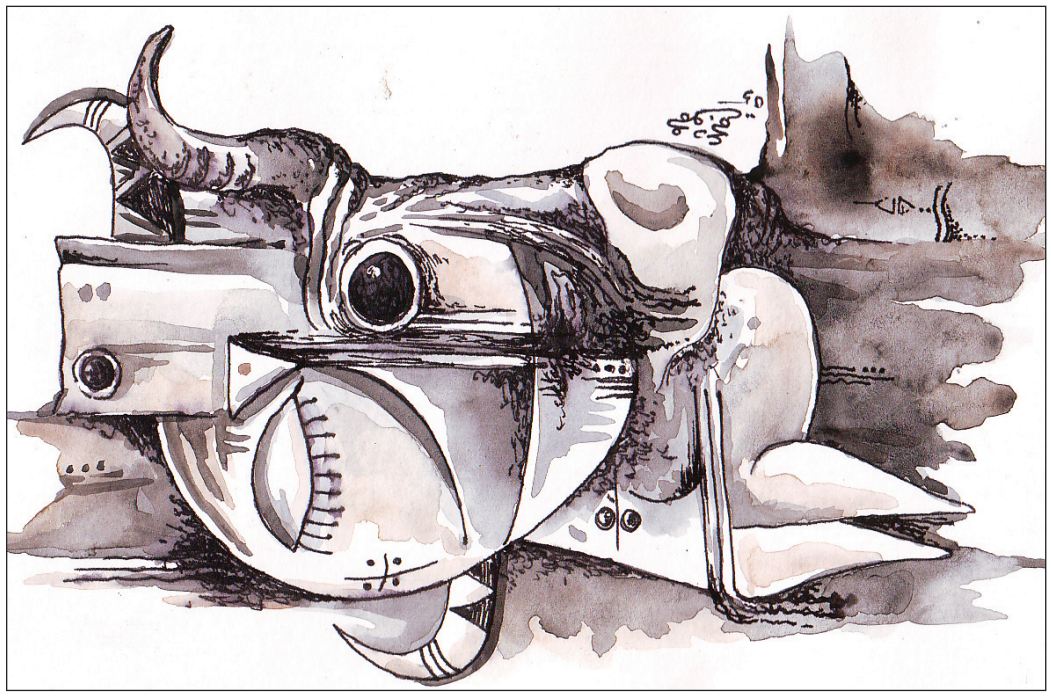

كان شرارة في عام ١٩٥٤ قد غادر العراق الى لبنان ليقضي بضعة أعوام في التدريس وفي الكتابة الأدبية. لكنه عاد بعد ثورة الرابع عشر من تموز إلى العراق. ولم يكد يمضي وقت قصير حتى بدأ يحس أن الوضع في ظل الجمهورية قارب أن يصبح شبيها بما كان عليه الوضع قبل ذلك

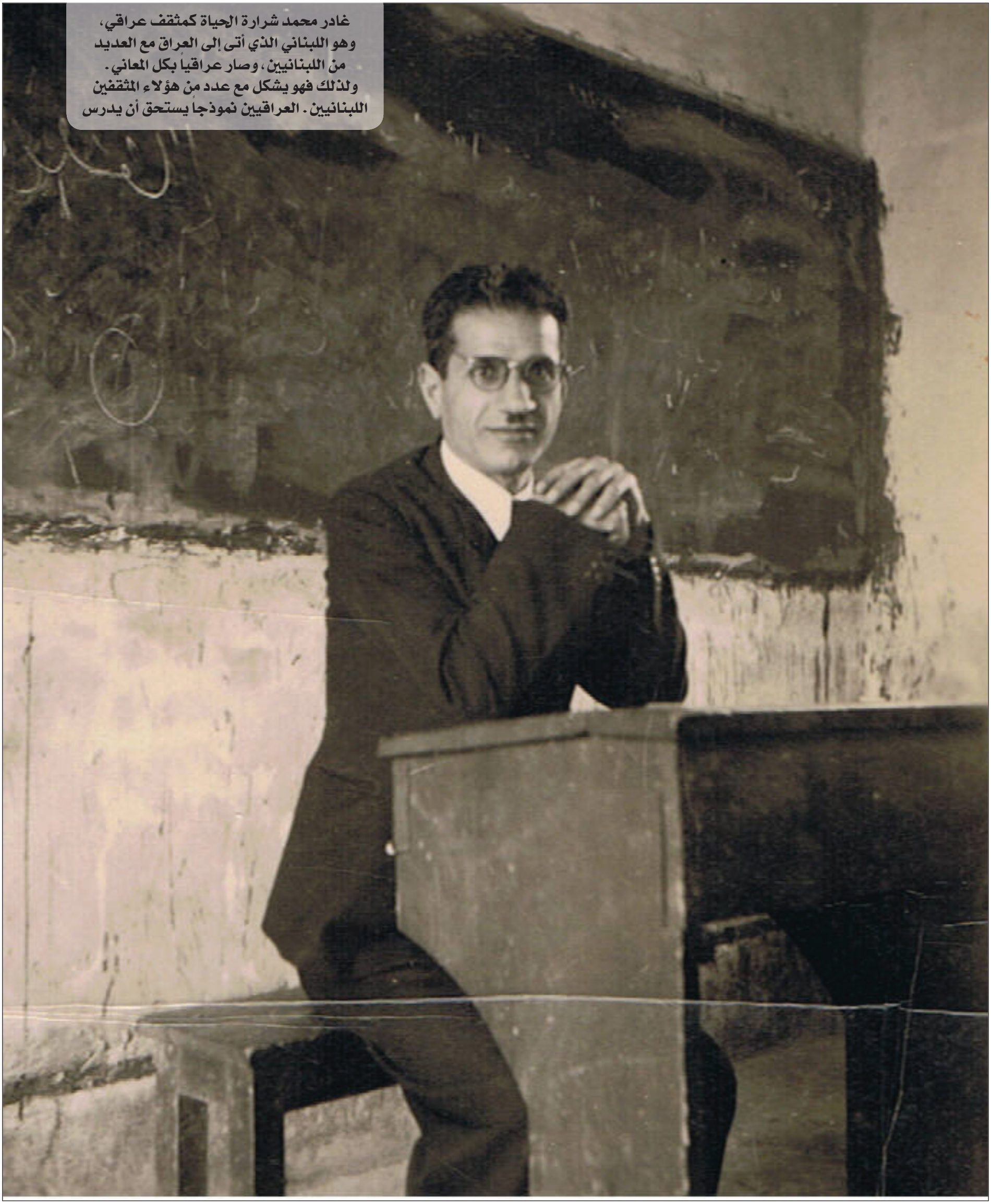

غادر محمد شرارة الحياة كمثقف عراقي، وهو اللبناني الذي أتى إلى العراق مع العديد من اللبنانيين، وصار عراقيا بكل المعاني. ولذلك فهو يشكل مع عدد من هؤلاء المثقفين اللبنانيين. العراقيين نموذجاً يستحق أن يدرس

منارات

التحرير
على حسين

التصميم
مصطفى محمد

الاشراف اللغوي
محمد السعدي